بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الجزيرة

معهد إسلام المعرفة (إمام)

النظم الاجتماعية في رؤية القرآن للعالم: نحو برنامج للبحث العلمي

محمد الحسن بريمة إبراهيم (2020م)

﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ٤٩ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ٥٠﴾ (المائدة)

1- الرؤية الوجودية لعالم الاجتماع الإنساني في القرآن الكريم

* الرؤية الوجودية القرآنية تستوعب وتتجاوز الرؤية الوجودية المادية لماريو بنج، وللمدرسة الوجودية النقدية التي ينتمي إليها، المحدودة بعالم الشهادة، المحجوبة بظاهر من الحياة الدنيا، لأن الرؤية القرآنية مؤسسة على الأبعاد الوجودية لعالمي الغيب والشهادة، ومن ثم تتيح ثراءً كبيرا في معطيات التحليل للنظم الاجتماعية، وتنوعا وعمقا غير محدود في تفسير مظاهر الوجود الإنساني المتجذر في عالمي الغيب والشهادة.

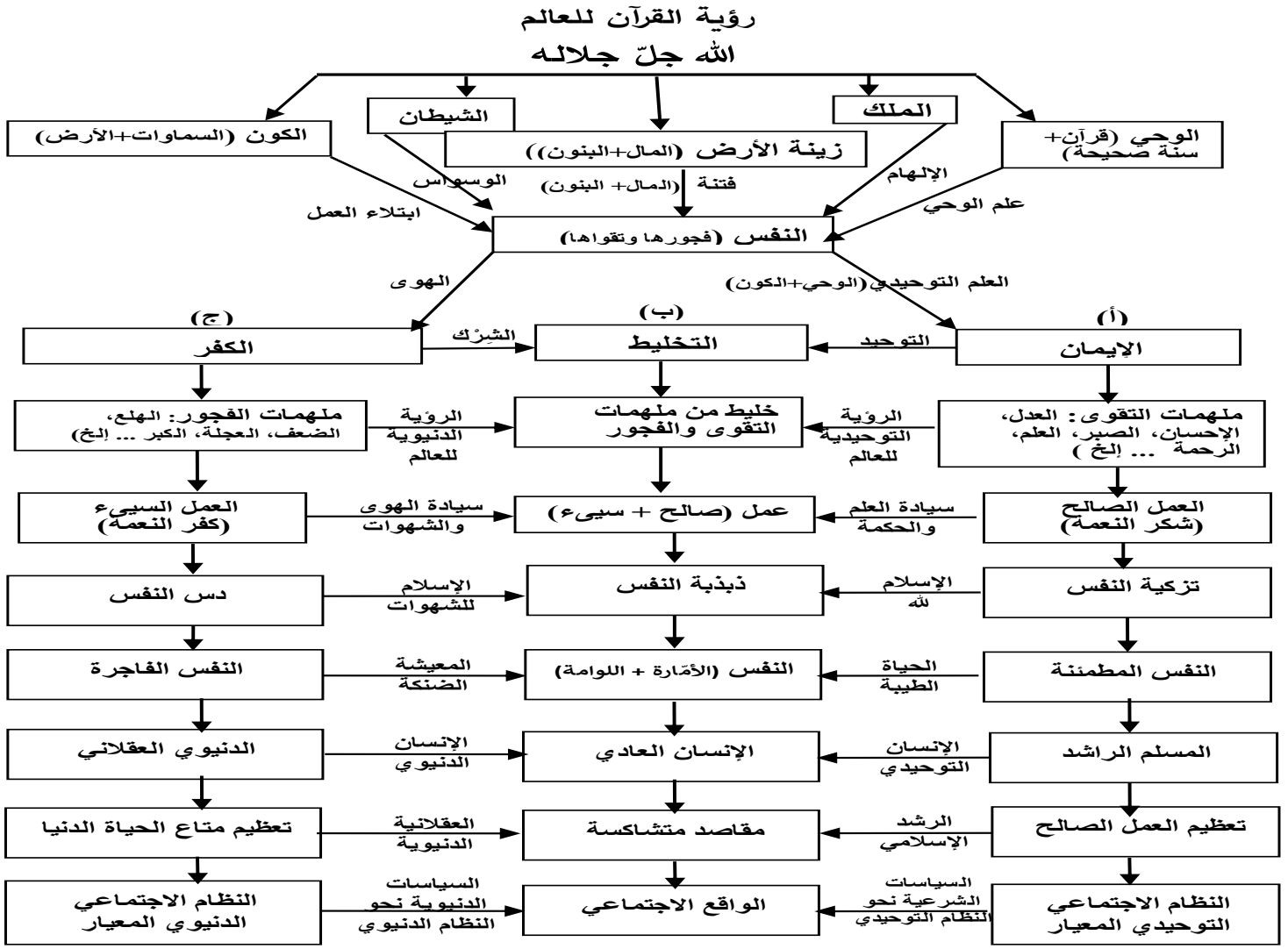

1)

رؤية القرآن للعالم

شكل رقم

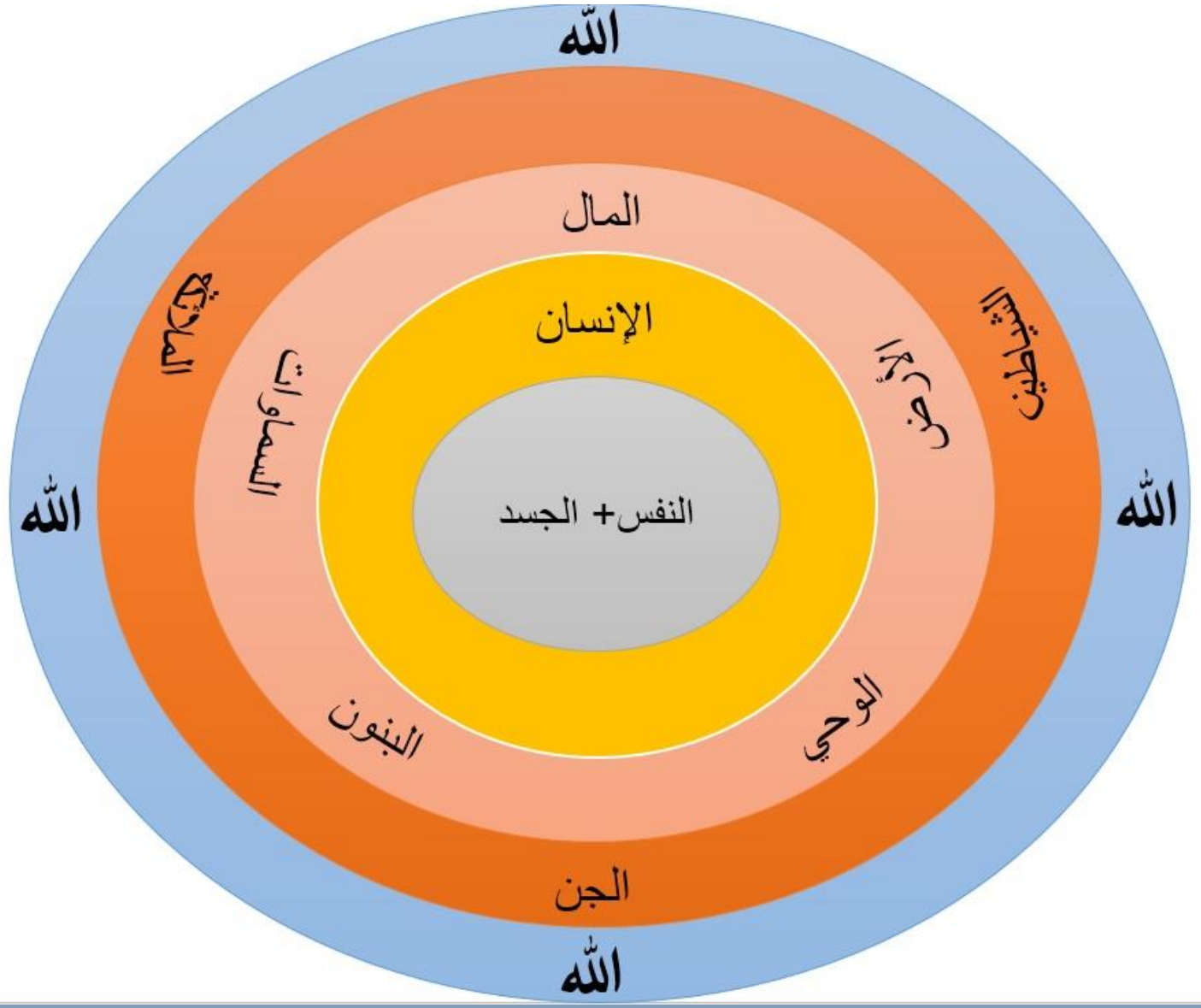

الله
المال
الملائكة
الشياطين
الإنسان
السماوات
الأرض
الله
النفس+ الجسد
الله
البنون
الوحي
الجن
الله

* إذا نظرنا إلى الشكلين أعلاه الذين يلخصان رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني فسوف نتبين القوى الفاعلة الآتية في فضاء الوجود الاجتماعي:

أولا؛ الله المتعالي، المصدّق، والمهيمن على جملة الفضاء الاجتماعي، إحاطة مباشرة، ومن خلال السنن الاجتماعية المذكورة في القرآن الكريم؛

ثانيا؛ الوحي الإلهي المنزل على فضاء الوجود الاجتماعي في كتاب بلسان عربي مبين، وهو يحوي المثال الديني المطلوب إقامته في الواقع الاجتماعي الظرفي، وهو كلام الله وعلمه، وهو محفوظ من التحريف بحفظ الله له إلى قيام الساعة؛

ثالثا؛ الوجود الاجتماعي، وقاعدته الكونية (النفس، المال، البنون) المحددان بالزمان والمكان، باعتباره الواقع الاجتماعي الظرفي الذي سوف يُشاد فيه بنيان الدين، ومن ثم الاتجاه بالواقع الاجتماعي الظرفي (الدين المقام) نحو التوحّد مع مثاله الديني الثاوي في الوحي الإلهي؛

رابعا؛ الشيطان، عدو الإنسان، الساعي لمنع إقامة بنيان الدين من قِبَل الإنسان، أو لتقويضه بعد بنائه؛ وهناك الجن منهم المسلمون، ومنهم القاسطون؛

خامسا؛ الملائكة، رسل الله تعالى، لا تفعل حتى تُؤمر، ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون؛

سادسا، أخيرا هناك البعد الكوني لفضاء الاجتماع الإنساني.

2- النظم الاجتماعية في رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني

" النظام الاجتماعي الإنساني هو نظام اجتماعي يتشكل من الناس، ومما عملته أيديهم من أشياء، ويمسكه روابط من الأحاسيس، المعتقدات، المعايير الأخلاقية والقانونية، وأفعال اجتماعية مشتركة". النظم الاجتماعية الكلية، التأسيسية التي تم استخلاصها من رؤية القرآن للعالم هي أربعة: النظام الاجتماعي العام المثال (شكل رقم-2)، نظام الاجتماع الدنيوي المثال (شكل رقم-3)، نظام الاجتماع التوحيدي المثال (شكل رقم-4)، نظام الواقع الاجتماعي (شكل رقم-5)، و(شكل رقم-7).

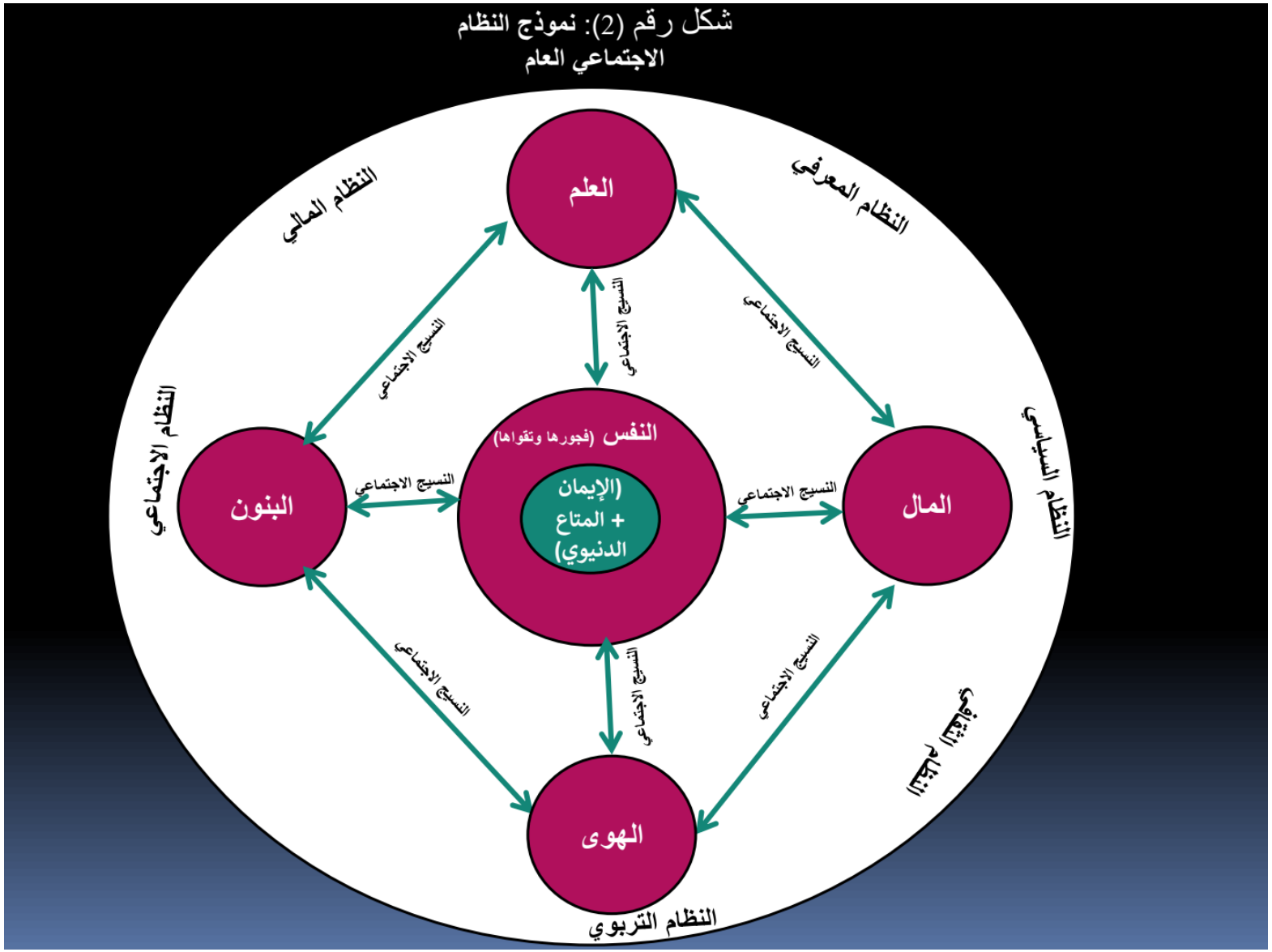
شكل رقم (2): نموذج النظام الاجتماعي العام
العلم
المال
البنون
الهوى
النفس (فجورها وتقواها)
(الإيمان + المتاع الدنيوي)
النسيج الاجتماعي
النظام المعرفي
النظام السياسي
النظام الاقتصادي
النظام التربوي
النظام الاجتماعي
النظام المالي

شكل رقم (3): نموذج
نظام الاجتماع الدنيوي

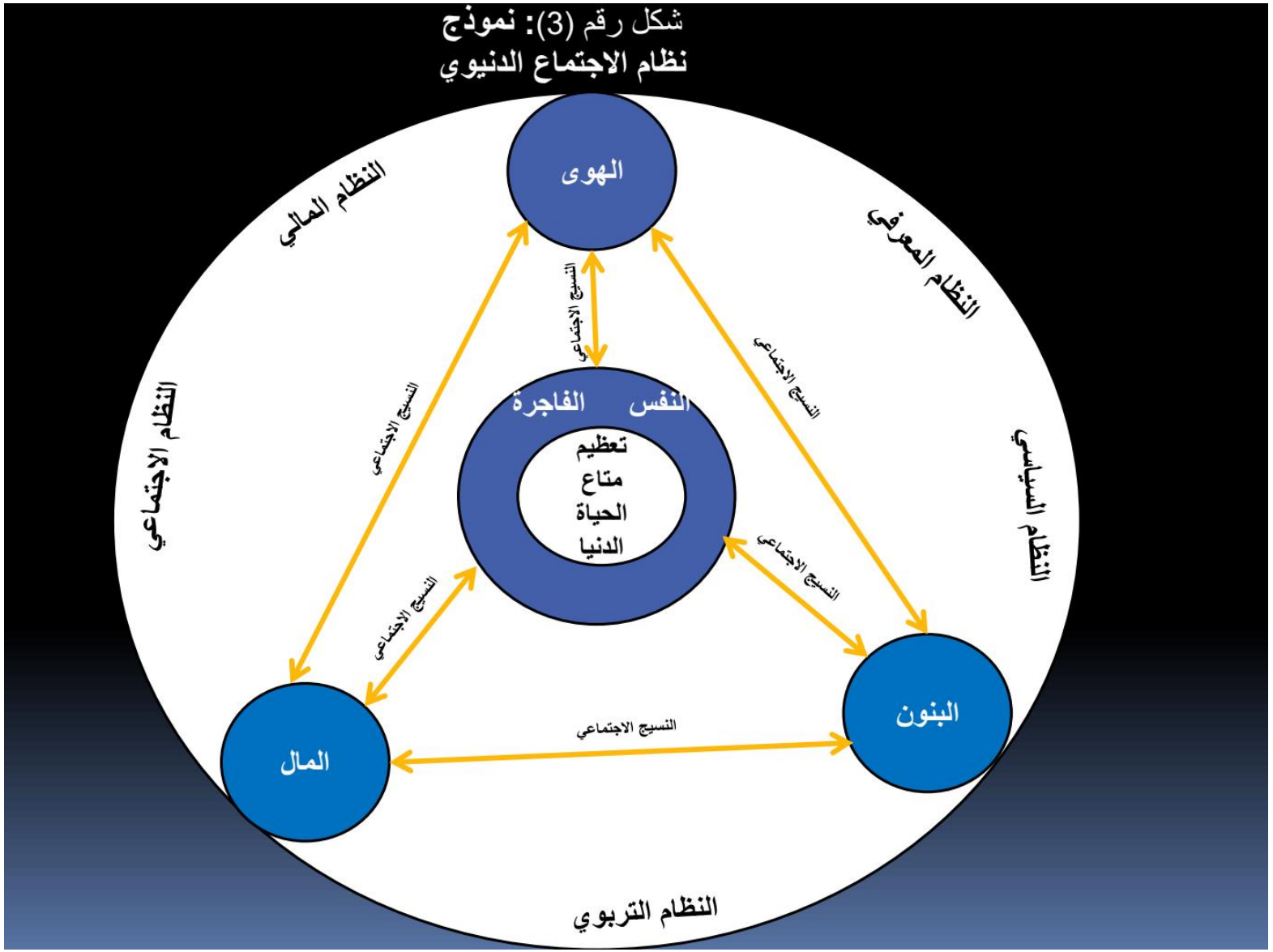

شكل رقم (4): نموذج نظام
الاجتماع التوحيدي

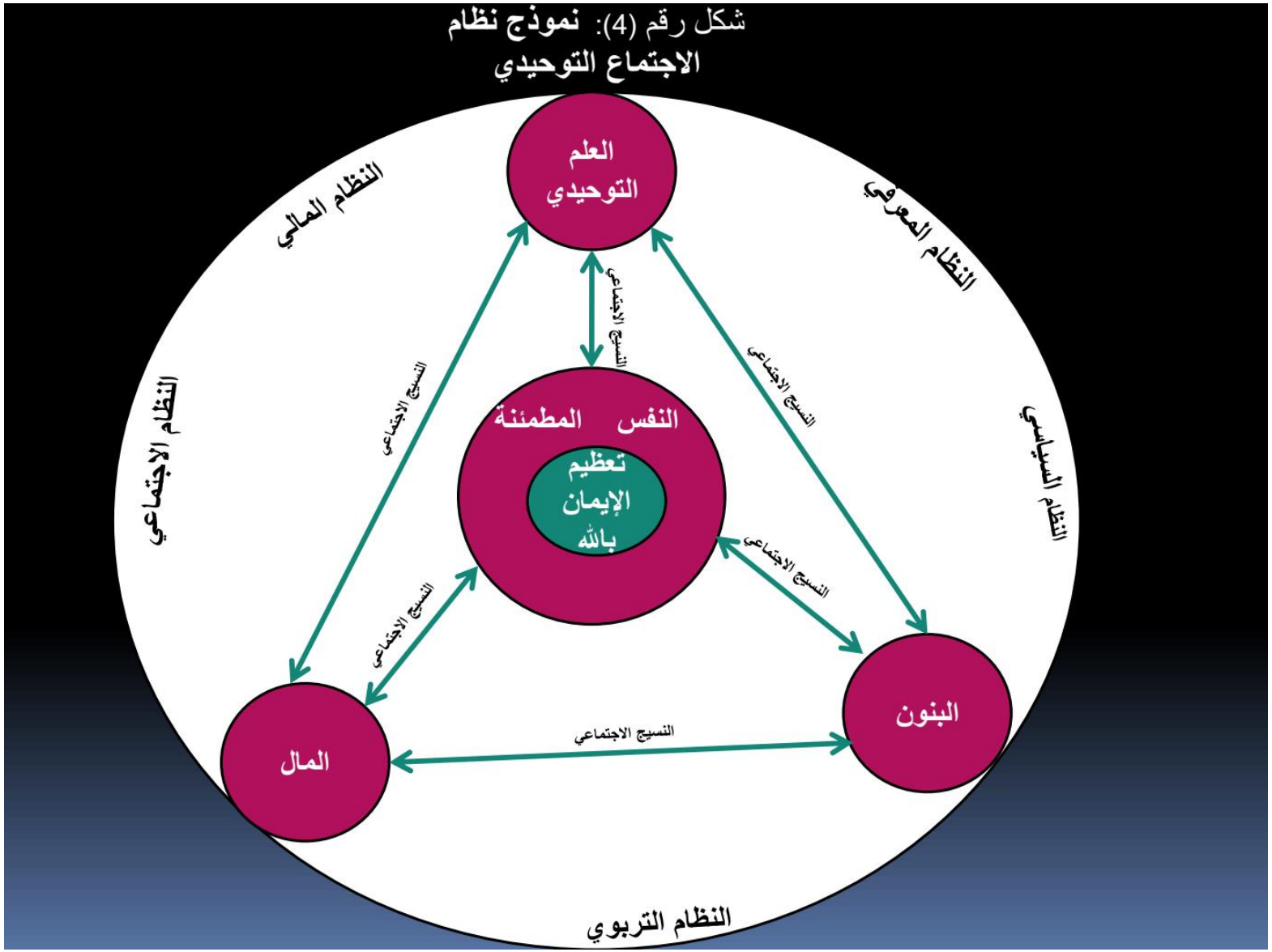

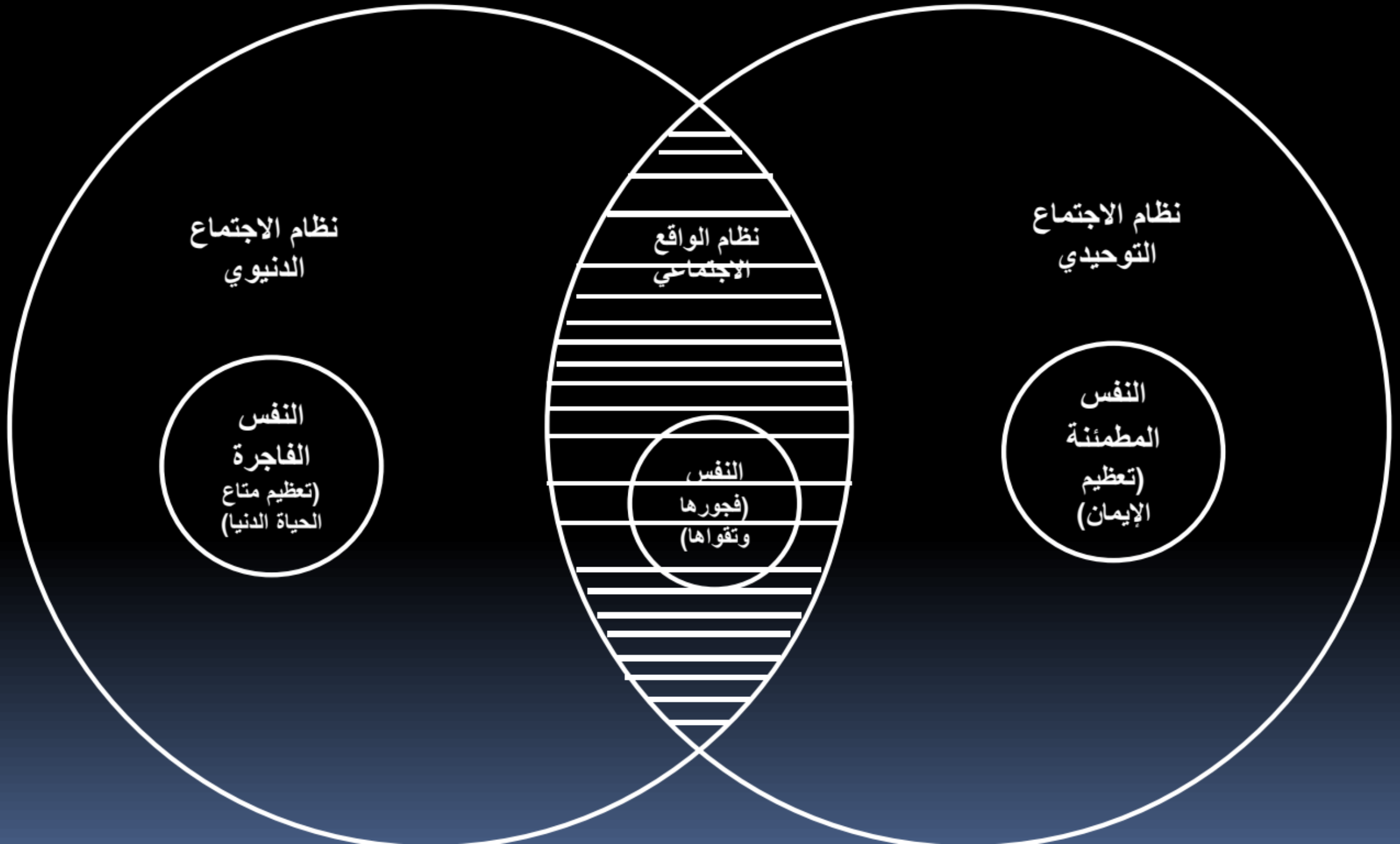
نظام الاجتماع
الدنيوي
النفس
الفاجرة
(تعظيم متاع
الحياة الدنيا)
نظام الواقع
الاجتماعي
النفس
(فجورها
وتقواها)
نظام الاجتماع
التوحيدي
النفس
المطمئنة
(تعظيم
الإيمان)

شكل رقم (7)

نظام الواقع الاجتماعي (2)

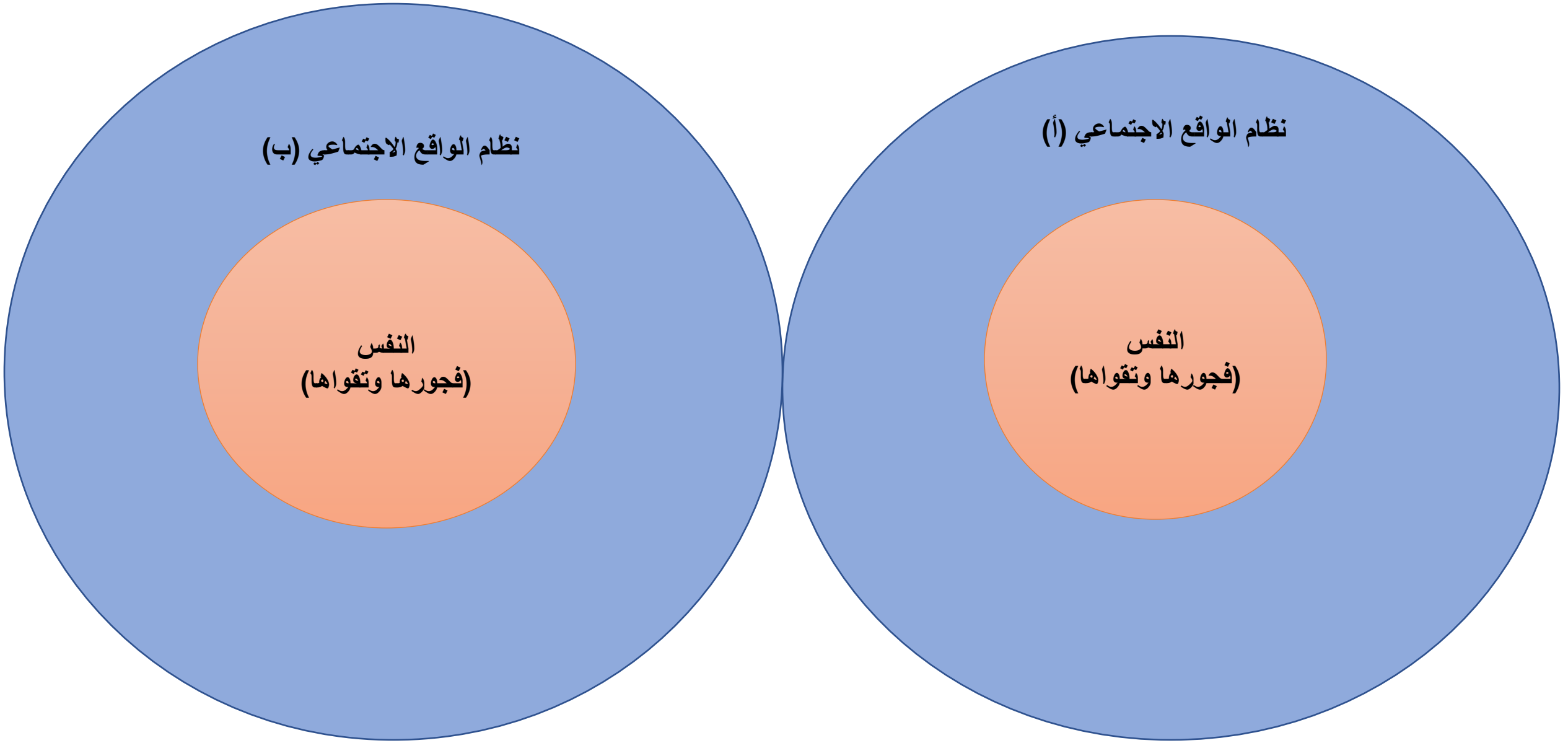

3- دلالة المنهج النظمي على النظم الاجتماعية

1.3- انبثاق الإنسان في رؤية القرآن للعالم

* النظم الاجتماعية في هذا البحث هي كائنات اجتماعية "تنبثق" من الفعل والتفاعل الاجتماعي بين آحاد الناس في إطار جماعة معينة من الناس يحدها الزمان ولربما المكان. لذلك لابد أن يكون المدخل المنهجي الصحيح هو الإجابة عن سؤال: من هو هذا الإنسان ذو الخواص السببية التي تُحدث كل هذه الآثار الاجتماعية بظواهرها التي لا تحصى؟

الإجابة عن هذا السؤال تقتضي استدعاء أمرين، أولهما مفهوم "الانبثاق" الذي شرحنا معناه في بحثنا سابق الذكر عن "الطريقة النظمية" لماريو بنج. نقتطف الآتي من ذلك البحث بما يخدم الغرض الذي نحن بصدده:

"يُعتبر أي مظهر من مظاهر الوجود تم العثور عليه في مستوى معين من التنظيم (organization) "منبثقا" (emergent) إن كان هناك احتمال لنشأته من مستوى وجودي أدنى، وتم تكييفه (conditioned) من قِبَل خواص (properties) ذلك المستوى الأدنى ويعتمد عليها، ولكن لا يمكن التنبؤ به من خلال العلم التام بتلك الخواص، أي من خلال النظام".

* الأمر الثاني الذي لا يستقيم فهم طبيعة الخَلْق الإلهي للإنسان إلا به هو ما أطلقت عليه اصطلاحا "خطة الخلق العامة" التي فصّلَتها رؤية القرآن للعالم في البحث الأول الذي ساهم به هذا الباحث في إطار المشروع البحثي الجماعي الجاري الآن بإمام، لأن المقصد الإلهي من خلق الإنسان الذي بيّنه التدبير الإلهي في الخطة يفسّر لنا لم خلق الله تعالى الإنسان على الهيئة التي سوف نتبين معالمها أدناه. إن قول الله تعالى: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات....) إنما يفهم في إطار نسبة هذا الخلق إلى الابتلاء والامتحان في زينة الحياة الدنيا (المال والبنون) ومآلاته، وهو امتحان لابد أن يخوض كل إنسان غماره في هذه الحياة الدنيا ليؤول أمره إلى مآلين أشارت إليهما الآية الكريمة بعد الخلق في أحسن تقويم. لكن إن لم نستحضر هذه العلاقة التناسبية بين حقيقة الابتلاء وحقيقة الخلق الإنساني فسوف يعسر الفهم للحكمة من خلق الإنسان بالطريقة المعجزة التي خلقه الله بها كما بينها القرآن الكريم

* نستنبط من رؤية القرآن للعالم التي قام الباحث باستخلاصها وتطويرها سنين عددا أن خلق الإنسان شهد أربعة أنواع من "الانبثاق" قبل أن يستوي الإنسان بشرا سويا، وفي أحسن تقويم من حيث استعداداته الفطرية لخوض امتحان زينة الحياة الدنيا الذي هو قدره في هذه الحياة. نوجز هذه الأربعة أنواع من الانبثاق في الآتي:

1.1.3- انبثاق الجسد البشري

* الانبثاق الأول للإنسان بحسب الترتيب القرآني هو الجسد البشري الحي من تفاعلات الطين المتخمر ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ٢٦﴾ (الحجر)، وقد جعل الله تعالى من الماء كل شيء حي. والجسد البشري أُعِدّ، فيما أرى، لثلاث مهام في هذه الحياة الدنيا، أولها استقبال الروح المنفوخة فيه والتفاعل معها، والثانية أشرت إليها أعلاه وهي خوض غمار ابتلاء زينة الحياة الدنيا الذي هو قدر الإنسان في هذه الحياة، والثالثة حفظ النوع البشري عن طريق التناسل، وحفظ تنوعه عن طريق نقل المورثات الجينية، فقد جعل الله تعالى نسل بني آدم في ظهورهم.

* الجسد البشري الحي هو نظام حيوي يستوفي جميع الشروط الوجودية المادية لنظام الكائن الحي، وله خواصه السببية المنبثقة التي لا توجد في عناصره الأولية المكونة له (الخلايا)، مثل إمكان: "الحركة، السمع، البصر، الشم، اللمس، الذوق، التفكير، العاطفة...إلخ" باعتباره محل الخواص السببية الروحية التي لا يمكن تفعيلها عمليا إلا من خلال ما يشاكلها من الخواص السببية الجسدية. وهي قوى سببية موجودة فيه بالقوة، ولكنها تتحول إلى الفعل بعد اكتمال مراحل الانبثاق الأخرى للإنسان. ولكل إنسان بصمة جسدية خاصة به بحيث لا يتطابق جسدان ولو كانا توأمين، فلكل إنسان بصمته اللونية، والبنانية، والعينية، واللسانية ...إلخ يكتسبها من خلال مورثاته الجينية كما يبين ذلك العلم الحديث.

* إذن الجسد البشري يضرب بجذوره في الكون، وتتجسد فيه جميع العناصر المكونة له بمستوياتها المختلفة، فيزيائية وكيميائية وحيوية.

2.1.3- انبثاق الروح من الأمر الإلهي

* الانبثاق الثاني للإنسان بحسب القرآن الكريم يتمثل في انبثاق الروح من الأمر الإلهي: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا٨٥﴾ (الإسراء)؛ ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ٢٩﴾ (الحجر).

1.2.1.3. - مفهوم الروح في التراث المعرفي الإسلامي

* يورد ابن القيم في كتابه (الروح)، في **المسألة السابعة عشرة** السؤال الآتي:

"هل الروح قديمة أم محدثة مخلوقة؟ وإذا كانت محدثة مخلوقة، وهي من أمر الله، فكيف يكون أمر الله محدثا مخلوقا؟ وقد أخبر سبحانه أنه نفخ في آدم من روحه، فهذه الإضافة إليه هل تدل على أنها قديمة أم لا؟ وما حقيقة هذه الإضافة؟ فقد أخبر عن آدم أنه خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، فأضاف اليد والروح إليه إضافة واحدة".

* يستعرض ابن القيم آراء مختلف الفرق الإسلامية والعلماء في الأسئلة أعلاه ثم يرد عليها، وقد ترجح لديه الآتي، مبتدئا بآية نفخ الروح في آدم:

"وهذا بناء على أن المراد بالروح في الآية روح الإنسان وفي ذلك خلاف بين السلف والخلف، وأكثر السلف بل كلهم على أن الروح المسؤول عنها في الآية ليست أرواح بني آدم بل هو الروح الذي أخبر الله عنه في كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة، وهو ملك عظيم.... وأما أرواح بني آدم فليست من الغيب، وقد تكلم فيها طوائف من الناس من أهل الملل وغيرهم، فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة".

* ويقول فيما يتعلق بخلق الروح البشرية:

"ولا خلاف بين المسلمين أن الأرواح التي في آدم وبنيه وعيسى- ومن سواه من بني آدم كلها مخلوقة لله، خلقها وأنشأها، وكوّنها، واخترعها؛ ثم أضافها إلى نفسه كما أضاف إليه سائر خلقه..... وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: روح الآدمي مخلوقة مبتدعة باتفاق سلف الأمة وائمتها وسائر أهل السنة".

* فهذه الروح المقبوضة هي النفس التي يتوفاها الله حين موتها وفي منامها، وهي التي يتوفاها ملك الموت، وهي التي تتوفاها رسل الله سبحانه. وهي التي يجلس الملك عند رأس صاحبها، ويخرجها من بدنه كرها، ويكفنها بكفن من الجنة أو النار، ويصعد بها إلى السماء، فتصلي عليها الملائكة أو تلعنها، وتوقف بين يدي ربها، فيقضي فيها بأمره. ثم تعاد إلى الأرض فتدخل بين الميت وأكفانه، فتسأل وتمتحن وتعاقب وتنعّم .وهي التي تجعل في أجواف الطير الخضر تأكل وتشرب من الجنة. وهي التي تعرض على النار غدوا وعشيا.

وهي التي تؤمن وتكفر، وتطيع وتعصي. وهي الأمّارة بالسوء، وهي اللوامة، وهي المطمئنة إلى ربها وأمره وذكره. وهي التي تعذّب وتنعّم، وتسعد وتشقى، وتحبس وترسل، وتصح وتسقم، وتلذ وتألم، وتخاف وتحزن. وما ذاك إلا سمات مخلوق مُبدَع، وصفات مُنشَأ مُخترَع، وأحكام مربوب مدبَّر مُصرَّف تحت مشيئة خالقه وفاطره وبارئه".

* بعد استعراضه لعدد وافر من آراء الفقهاء في المسألة ترجح لابن القيم تأخر خلق الروح عن خلق الجسد مقدما أدلته في ذلك:

"وأما الدليل على أن خلق الأرواح متأخر عن خلق أبدانها، فمن وجوه؛ **أحدها**: أن خلق أبي البشر-وأصلهم كان هكذا. فإن الله سبحانه أرسل جبريل، فقبض قبضة من الأرض، ثم خمّرها حتى صارت طينا، ثم صوّره، ثم نفخ فيه الروح بعد أن صوّره. فلما دخلت الروح فيه صار لحما ودما، حيا ناطقا..... فالقرآن والحديث والآثار تدل على أن الله سبحانه نفخ فيه من روحه بعد خلق جسده، فمن تلك النفخة حدثت فيه الروح".

2.2.1.3. - مفهوم الروح في نظرية النظم الاجتماعية في رؤية القرآن للعالم

* نعرّف الروح بأنها

"كائن معنوي منبثق عن التفاعل بين عناصره المكونة له، وهي الصفات، أو القوى السببية الإلهية التي خلق الله تعالى بها الكون، وجاء الكون استجابة ضرورية لفعاليتها مثل العلم، الإيمان، المودة، الرأفة، الرحمة، السمع، البصر، العدل، الإحسان، الصبر، الشكر، السلام، الإبداع، اللطف، العزّة، القوة، الجبرة، المتانة، الهيمنة، القدرة، الإرادة...إلخ". ولما قدر الله تعالى أن يكون الإنسان خليفته في الأرض، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه حتى يتحرك فيهما بلا عوائق، كان لابد أن يكون له من الخواص السببية ما يقتضي استجابة الكون لوقعها بالفعل الإنساني، وليس من قوى سببية أعظم وأدعى أن يستجيب الكون المسخر لوقعها بهذا الفعل الإنساني من تلك التي جاء الكون استجابة لوقعها بالفعل الإلهي. وإذا كانت القوى السببية الإلهية مطلقة عند الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ٨٢﴾ (يس)، فنصيب الإنسان منها نسبي، وهذا النصيب مخلوق خلقا يناسب الإنسان في مهمته الاستخلافية عن الله تعالى في الأرض. ومهمة الروح ككائن معنوي هي جعل هذه القوى السببية الإلهية جزءا من خلق الإنسان من خلال نفخها في الجسد الطيني الذي انبثق أولا كما أسلفنا.

* النسيج الذي يربط بين هذه القوى السببية الإلهية، المخلوقة بما يتناسب مع خلق الإنسان، في تفاعلها المؤدي إلى انبثاق "الروح"، هو (لا إله إلا الله)، وهو ذات النسيج الذي يمسك الكون من الزوال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾ (فاطر)، ولو أن الإنسان واصل سعيه الحثيث الآن إلى منتهاه في تفكيك المادة الكونية إلى عناصرها الأولية لانتهى إلى (لا إله إلا الله): ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَ لَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣﴾ (فصلت).

* الصفات الإلهية مطلقة السببية في الذات الإلهية، ولهذا الإطلاق السببي جاء "الكون" استجابة ضرورية ل"كن فيكون"، ولكنها نسبية السببية في الذات الإنسانية، وهي أساس الخُلُق الإنساني الذي سقفه خُلُق الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾ (القلم). ولذلك تأتي استجابة الكون بالصلاح للفعل الإنساني نسبيةً أيضا بمقدار تفعيل الإنسان لهذه القوى السببية الإلهية في سعيه الاستخلافي في الأرض، وفي حركته الكونية: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦﴾ (الأعراف).

* الروح بهذا التعريف هي كائن غير قابل للفناء والفساد، وهي نظام جامع للصفات الإلهية في نسبيتها الإنسانية، ولأن الصفات لا قوام لها بذاتها بل لابد لها من حامل يحملها، فقد عرضها الله تعالى على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان لأنه هو ذلك الكائن المقصود بتلك الصفات الجليلة. وقد وصفه الله تعالى في ذلك الحمل بأنه كان ظلوما جهولا، فقد ظلم على الدوام حق تلك القوى السببية العظيمة بعدم تفعيلها في الكون بالوجه الذي يحقق الصلاح للإنسان، والشكر لله على نعمته، وهو جهول بالمآلات والعواقب التي يؤدي إليها ظلمه هذا. لكن تظل التركيبة الروحية في الإنسان هي كنز تحرره من سجن نفسه، ومن سجن غيره، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

* الروح بهذا التعريف والتكييف هي نظام واحد يوجد في جميع الناس لأنه أساس تكريم الإنسان، والتفاضل بين الناس في مواقف الإيمان والكفر، والأخلاق والأعمال إنما يأتي من النفس البشرية بمقدار تخلّقها بالصفات الإلهية التي هي العناصر المكونة للروح، وبمقدار جعلها أساسا للفعل والتفاعل الاجتماعي في البيئة الخارجية. ودراسة الروح إنما تتم من خلال دراسة مكوناتها، أي الصفات الربانية في نسبيتها الإنسانية، ودراسة نسيجها (التوحيد)، ودراسة مكنزمات التزكية التي ينبغي أن يفعّلها المؤمن في كل خاصية من الخواص الإلهية الثاوية في الروح، مثلا العلم، الإيمان، الرحمة، العدل، الإحسان، الصبر، الشكر...إلخ حتى تصبح من خواصه النفسية العملية. كذلك دراسة أثر البيئة الخارجية على قوة وضعف فاعلية هذه القوى السببية لدى الإنسان باعتبار الروح مكّون من مكّونات النفس البشرية فى تفاعلها الابتلائى مع زينة الحياة الدنيا.

* إن الصفات الربانية التي تهيأت للإنسان بنفخة الروح فيه تربطه ربطا وثيقا بعالم الأمر الإلهي الذي جاءت منه، فكل صفة من هذه الصفات طرفها الأدنى عند الإنسان وطرفها الأعلى عند الله تعالى، وهو تعالى الذي يقبض ويبسط منها لكل إنسان بمقدار سعيه في التخلّق بها طلبا لها من مظانها، وبمقدار التحقق بها في الحياة العملية صلاحا في الأرض.

* كل صفة من هذه الصفات الربانية التي كُرّم بها الإنسان مفتوحة على ما يناسبها من خزائن الله التي لا تنفد: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ٢١﴾ (الحجر)؛ وفي الصحيحين عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم: *(إِنَّ اللَّهَ خلقَ الرَّحمةَ يومَ خلقَها مائةَ رحمةٍ أنزلَ منْها رحمةً واحدةً فبِها يتراحمُ الخلقُ حتَّى إنَّ الدَّابَّةَ لترفعُ حافرَها عن ولدِها من تلكَ الرَّحمةِ واحتبسَ عندَهُ تسعًا وتسعينَ رحمةً فإذا كانَ يومُ القيامةِ جمعَ هذِهِ إلى تلكَ فرحِمَ بِها عبادَهُ)*. فتأمل كيف تحولت الرحمة، وهي صفة ربانية، إلى خلق من خلق الله، وخزنة من خزائنه ينفق منها على مخلوقاته، وقس على ذلك بقية الصفات.

* الصفات الإلهية في نسبيتها الإنسانية هي مصدر المعايير الأخلاقية والقانونية للإنسان في إطار فعله وتفاعله الاجتماعي، سواء كان ذلك في مجتمع يُعبد فيه الله تعالى، ويقام فيه الدين، أو في مجتمع دنيوي يرتبط سعيه بتحقيق المنافع الدنيوية لا غير. في المجتمع الأول يكون الفعل الاجتماعي المتأطّر بهذه المعايير الأخلاقية عبادة لله تعالى، وما ينتج عنه من آثار يكون عملا صالحا يعمر الأرض بالصلاح، وفي المجتمع الدنيوي تصير فيه هذه الصفات الإلهية منشأ للمعايير الأخلاقية والقانونية النفعية، لأن النفع الدنيوي لا يتحقق في المجتمع على الجملة إلا بالتزام حد أدنى من هذه المعايير مثل الرحمة، العدل، الإحسان، الصبر...إلخ. إن المعيارية ظاهرة بشرية بامتياز، ولا يمكن للجسد الطيني المادي أن يكون مصدرا لما هو غير مادي، فصار من الموضوعي أن تكون الروح هي مصدرها.

3.1.3.- انبثاق النفس

1.3.1.3. - النفس في التراث الإسلامي

* طرح ابن القيم في **المسألة التاسعة عشرة** في كتابه "الروح" الأسئلة الآتية:

"ما حقيقة النفس؟ هل هي جزء من أجزاء البدن، أو عرض من أعراضه، أو جسم مساكن له منفوخ فيه، أو جوهر مجرد؟ وهل هي الروح أو غيرها؟ وهل الأمّارة واللوّامة والمطمئنة نفس واحدة لها هذه الصفات، أم هي ثلاثة أنفس؟".

* انتصر ابن القيم للرأي القائل بأن النفس هي:

"جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس، وهو جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء، ويسري فيها سريان الماء في الورد، وسريان الدهن في الزيتون، والنار في الفحم. فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف، بقي ذلك ا لجسم اللطيف مشابكا لهذه الأعضاء، وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الإرادية . وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها، وخرجت عن قبول تلك الآثار، فارق الروح البدن، وانفصل إلى عالم الأرواح ".

* علّق ابن القيم على التعريف أعلاه بقوله: *"وهذا القول هو الصواب في المسألة، وهو الذي لا يصح غيره، وكل الأقوال سواه باطلة، وعليه دل الكتاب والسنة واجماع الصحابة، وأدلة العقل والفطرة" .*

* **المسألة عشرون** في كتاب الروح احتوت على السؤال الآتي: **هل النفس والروح شيء واحد أو شيئان متغايران؟**

* يجيب ابن القيم:

"أما الروح التي تتوفى وتقبض، فهي روح واحدة، وهي النفس .وأما ما يؤيد الله به أولياءه من الروح فهي روح أخرى غير هذه الروح، كما قال تعالى :(أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) (المجادلة،22). وكذلك الروح الذي أيد بها روحه المسيح ابن مريم كما قال تعالى: (إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي التي أنعمت عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس) (المائدة، 110). وكذلك الروح التي يلقيها على من يشاء من عباده هي غير الروح التي في البدن. وأما القوى التي في البدن فإنها أيضا تسمى أرواحا فيقال: الروح الباصر، والروح السامع، والروح الشام. فهذه الأرواح قوى مودعة في الأبدان تموت بموت الأبدان. وهي غير الروح التي لا تموت بموت البدن، ولا تبلى كما يبلى".

* أورد ابن القيم في **المسألة الواحد والعشرين السؤال الآتي: هل النفس واحدة أم ثلاثة؟** ثم أجاب:

"فقد وقع في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاثة أنفس؛ نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة، وأن منهم من تغلب عليه هذه، ومنهم من تغلب عليه الأخرى. ويحتجون على ذلك بقوله تعالى: (يا أيتها النفس المطمئنة) (الفجر، 27)، وبقوله: (لا أقسم بيوم القيامة 1 ولا أقسم بالنفس اللوامة) (القيامة، 1-2)، وبقوله: (إن النفس لأمارة بالسوء) (يوسف، 53).

والتحقيق أنها نفس واحدة، ولكن لها صفات فتسمى باعتبار كل صفة باسم. فتسمى "مطمئنة " باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والرضا به، والسكون إليه .

* أورد ابن القيم في **المسألة الواحد والعشرين السؤال الآتي: هل النفس واحدة أم ثلاثة؟** ثم أجاب:

"فقد وقع في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاثة أنفس؛ نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة، وأن منهم من تغلب عليه هذه، ومنهم من تغلب عليه الأخرى. ويحتجون على ذلك بقوله تعالى: (يا أيتها النفس المطمئنة) (الفجر، 27)، وبقوله: (لا أقسم بيوم القيامة 1 ولا أقسم بالنفس اللوامة) (القيامة، 1-2)، وبقوله: (إن النفس لأمارة بالسوء) (يوسف، 53).

والتحقيق أنها نفس واحدة، ولكن لها صفات فتسمى باعتبار كل صفة باسم. فتسمى "مطمئنة " باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والرضا به، والسكون إليه .

* وأما اللوامة، وهي التي أقسم بها سبحانه في قوله: (ولا أقسم بالنفس اللوامة) (القيامة، 2) فاختُلف فيها. فقالت طائفة هي التي لا تثبت على حال واحدة، أخذوا اللفظة من التلَوُّم، وهو التردد، فهي كثيرة التقلّب والتلوّن. وهي من أعظم آيات الله، فإنها مخلوق من مخلوقاته تتقلب وتتلون في الساعة الواحدة - فضلا عن اليوم والشهر والعام والعمر - ألوانا متلونة، فتذكر وتغفل، وتقبل وتعرض، وتلطف وتكثف، وتنيب وتجفو، وتحب وتبغض، وتفرح وتحزن، وترضى وتغضب، وتطيع وتعصي، وتتقي وتفجر، إلى أضعاف ذلك من حالاتها وتلونها، فهي تتلون كل وقت ألوانا كثيرة.

* وأما النفس الأمارة، فهي المذمومة، فإنها التي تأمر بكل سوء. وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله، وثبتها، وأعانها. فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله له، كما قال تعالى حاكيا عن امرأة العزيز: (وما أبرئ نفسي- إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، إن ربي غفور رحيم) (يوسف، 53). وقال تعالى: (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا) (النور، 21). وقال تعالى لأكرم خلقه عليه، وأحبهم إليه: (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا) (الإسراء، 74).

2.3.1.3.- النفس في نظرية النظم الاجتماعية في رؤية القرآن للعالم

المرحلة الثالثة من انبثاق الإنسان هي في انبثاق "النفس" من التفاعل بين الجسد الحيوي والروح حاملة الخواص السببية الإلهية إليه. والنفس في القرآن الكريم غير الروح، فعندما تكلم الله تعالى في القرآن عن "الروح" التي نفخها في الإنسان لم يفصح عن حقيقتها، وإن ثبت فيما نقلناه عن ابن القيم أنها كائن مخلوق، بينما تكلم عن خواص "النفس" وأوصافها وأحوالها في الحياة، وفي المنام، وفي الممات، وأنها هي المُكلّفة في هذه الحياة الدنيا، وأنها هي المحاسبة في الدار الآخرة، وأنها حقيقة الإنسان.

* "النفس" بهذا الانبثاق هي كائن كلّي، حي ومدرك، وهي نظام يستمد وجوده من مكوناته (الروح، الجسد)، ومن التفاعل الدائم بين هذه المكونات داخل قلب الإنسان، ولكن النفس تختلف عنهما من حيث خواصها السببية المنبثقة التي لا توجد في أي من هذه المكونات منفردة، وإن كانت لها أيضا خواص مكتسبة من الخواص السببية للجسد الطيني والخواص السببية للروح.

* نفترض مرة أخرى أن النسيج الذي يربط بين الروح والجسد في تفاعلهما الذي تنبثق منه نفس الإنسان هو (لا إله إلا الله)، أو بمعنى آخر (كن فيكون)، فالطبيعة الغيبية للروح تجعل من غير الممكن، على الأقل في الحال الراهن للعلم، الدراسة التجريبية لكيفية ارتباطها بالجسد البشري. وهو افتراض آمن، بل مسلمة إيمانية غيبية يحتملها التنظير، في حال تعذر الوصول إلى افتراض أقرب رُحْما إلى التجريب. وقد لا يكون ذلك مُهِمّا ما دام هذا التفاعل ثمرته هي النفس المنبثقة القابلة للدراسة التجريبية. وقد ذكر ابن القيم فيما نقلناه عنه أن القرآن يتكلم عن النفس فقط ويريد بذلك الروح، وذلك حسب تحليلنا عائد إلى أن الروح بعد نفخها في الجسد صارت مكونا من مكونات النفس، ولم يعد لها وجود مستقل داخل الجسد. هذا التفاعل المنتج للنفس البشرية مكانه ابتداء هو "القلب" الذي في "الصدر"، بالمعنى القرآني للمفهومين.

* هناك حديث نبوي صحيح رواه البراء بن عازب، رضي الله عنه، وصححه الألباني، له دلالة على الطبيعة الوجودية للنفس المنبثقة من هذا التفاعل بين الروح والجسد نورد ما يلينا منه في هذا المقام:

"كنَّا في جنازةٍ في بقيعِ الغرقد، فأَتانا النبيُّ، فقعدَ وقعَدنا حولَهُ، كأنَّ علَى رؤوسِنا الطَّيرَ، وهو يُلحَدُ له، فقال: أعوذُ باللَّهِ من عذابِ القبرِ، ثلاثَ مرَّاتٍ، ثم قالَ: إنَّ العبدَ المؤمنَ إذا كانَ في إقبالٍ منَ الآخرةِ وانقطاعٍ منَ الدُّنيا، نزلَت إليْهِ الملائِكةُ، كأنَّ علَى وجوهِهِمُ الشَّمسُ، معَهم كفنٌ من أكفانِ الجنَّةِ، وحَنوطٌ من حَنوطِ الجنَّةِ، فجلَسوا منْهُ مدَّ البصرِ ثمَّ يجيءُ ملَكُ الموتِ حتَّى يجلِسَ عندَ رأسِهِ فيقولُ: يا أيَّتُها النَّفسُ الطَّيِّبةُ اخرُجي إلى مغفِرةٍ منَ اللَّهِ ورِضوانٍ، قالَ: فتَخرجُ تسيلُ كما تسيلُ القطرةُ من فِيّ السِّقاءِ فيأخُذُها فإذا أخذَها لم يدعوها في يدِهِ طرفةَ عينٍ حتَّى يأخُذوها فيَجعلوها في ذلِكَ الْكفَنِ وذلِكَ الحنوطِ، ويخرجُ منْها كأطيبِ نفحةِ مِسْكٍ وُجِدَت علَى وجهِ الأرضِ".

* الحديث النبوي الشريف يشير إلى حقيقة وجودية للنفس تتعلق ببعد مادي مائي فيها إذ أنها تخرج "تسيل كما تسيل القطرة من فِيّ السقاء"، وأنها توضع في كفن وحنوط، ولها ريح طيب كرائحة المسك، فماذا لو كان هذا هو الأثر السببي للجسد في تفاعله مع الروح الذي انبثقت منه النفس، لاسيما وأن معظم الجسد البشري يتكّون من الماء مع قليل من أخلاط الأرض. ولنتذكر أن الله تعالى يخبرنا في القرآن الكريم في آيات كثيرة أن الإنسان خُلق من الماء، كما هو حال كل دابة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا٥٤﴾ (الفرقان). كذلك فإن الماء هو في حقيقته صفة إلهية هي "الرحمة"، ولكنها متجسدة في كائن مخلوق يناسب حاجات الإنسان وغيره من مخلوقات الله تعالى، لذلك فهو يمت بوشيجة قوية للصفات الإلهية التي جاءت بها الروح من عالم الأمر الإلهي. وللماء خواص منبثقة تناسب الطبيعة الوجودية للنفس البشرية، فهو قد يكون سائلا، أو جامدا، أو بخارا لا يرى بالعين المجردة، وهو يصعد في الجو ويسير مع الهواء، وهو يهبط وينسلك ينابيع في الأرض، أو يصبح غورا في باطنها، وهو يتغلغل في تركيبة الكائن الحي، وهو يأخذ شكل الوعاء الذي يتحيز فيه. وكل هذه الخواص قد أثبتها ابن القيم للنفس البشرية فيما نقلناه عنه من كتابه "الروح". إذن من مسلمات هذا البحث أن الماء مكّون وجودي في النفس البشرية.

* إذن الروح خلق من أمر الله في عالم الغيب، والماء المبارك خلق بقدر الله في عالم الشهادة، فالتقى الماء والروح على أمر قد قُدِر فكان الانبثاق العظيم للنفس البشرية بخواصها السببية المميزة، فلا هي كائن مادي خالص، ولا هي كائن روحي خالص، وربما هذا ما يشير إليه قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ١٤﴾ (المؤمنون). من الخواص الروحية للنفس تأتي تَعلُّقاتها العلوية، ومن الخواص المائية المادية للنفس تأتي تعلُّقاتها الدنيوية، وعلى الاثنين معا يتأسس ابتلاء زينة الحياة الدنيا (المال والبنون).

* النفس، إذن، تنبثق في قلب الإنسان الذي في صدره من التفاعل بين القوى السببية الروحية والقوى السببية المادية بعد نفخ الروح فيه، وتتغلغل في سائر جسده عن طريق الدم الذي يجري في عروقه لتتحيز داخل الجسد المعين، وتأخذ صورته بحكم الخواص المائية فيها. وربما لهذا السبب عندما يفقد الإنسان معظم دمه دفعة واحدة يفقد أيضا نفسه ويموت. هذا التحيز في الجسد وصورته هي التي تجعل ابتداءً نفس كل شخص متميزة عن غيره، لأن لكل جسد بصمته الوراثية الخاصة به فلا يتطابق جسدان. وتُكسب هذه الخواص الوراثية الجسدية النفس خواص تميزها عن غيرها في مجال الخواص الحسية من سمع، وبصر، وشم، ولمس، وذوق، وكلام، وذكاء...إلخ. ويؤثّر هذا التمايز المكتسب بين الأنفس على تجربة النفس الحياتية وهي تخوض ابتلاء زينة الحياة الدنيا، مما يؤثر بدوره على كسبها من ملهمات الفجور وملهمات التقوى، ومن ثم على جملة كسبها من الفعل والعمل.

* يستمر هذا التفاعل بين الروح والماء الجسدي، الضامن لبقاء النفس في تقلبها، مدى حياة الإنسان على هذه الأرض. ففي القلب يفور ويمور حب الشهوات المادية كاللذّة والفرح المنبعثة من زينة الحياة الدنيا (المال، البنون) التي زُيّن حبها للناس، ويمدها الشيطان، عدو الإنسان، بأسباب من عنده: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا٦٤﴾(الإسراء)، فتقع النفس فريسة سهلة لها، وتؤْثر الركون إليها، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا١٦﴾(الأعلى)؛﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا١٠﴾(الشمس). وحب الشهوات هو قوى منبثقة في النفس وليست مكتسبة من الجسد، فالجسد لا حظ له في الشهوات بل مطلوبه هو الغذاء اللازم لحفظه من بروتينات ونشويات وسكريات وفيتمينات...إلخ. ولكن ضرورات الجسد المادية هذه هي جزء من مكنزمات الابتلاء في زينة الحياة الدنيا التي تقود النفس إلى التعرف على اللذات المودعة في الأطعمة المختلفة التي أنعم الله بها على الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وذلك من خلال النظام المعقّد للفم، لا سيما اللسان، عندما تبدأ عمليات المعالجة الأولى للغذاء قبل انتقاله للمعدة. وحظ الجسد من هذه الأطعمة لا يبدأ غالبا إلا بعد أن تجتاز هذه الأطعمة الفم وتستقر في معمل المعدة لتبدأ عملية الفرز للمكونات الغذائية المختلفة مما يحتاجه الجسد لبقائه.

* في القلب أيضا توجد ملهمات التقوى كالعلم والإيمان والعدل والإحسان والرحمة، وبالجملة كل القوى السببية الإلهية التي جاءت بها الروح وصارت قوى مكتسبة للنفس، فإن هَدى الله العبد إلى الإيمان أكسبها هذا الإيمان من خلال التزكية بعدها الغيبي الرباني فجاشت في القلب متدافعة مع ملهمات الفجور، ويرجى أن تكون الغلبة لها في ابتلاء زينة الحياة الدنيا. هكذا تتدافع كل هذه القوى السببية في قلب الإنسان الذي آمن فيعيش تجربة الابتلاء في تقلبات النفس بين أمّارة بالسوء تارة، ولوّامة تارة أخرى، إلى أن ينتهي به منهج التزكية الذي يتبعه، إن وفقه الله تعالى، إلى نفس مطمئنة ليبدأ مشوارا آخر في مدارج السالكين إلى رب العالمين، وهو مشوار لا ينتهي إلا بالموت، ولكل درجات مما عملوا، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا.

* إذن "النفس" في الإنسان هي كائن حي منبثق، مستقل يجمع بين الخواص السببية الإلهية للروح في نسبيتها البشرية، وبين الخواص السببية المادية للجسد، وهي ما يسميه علم النُظُم بالخواص المكتسبة، ويزيد عليها بخواص سببية منبثقة تميزه عن كليهما، ذكر معظمها ابن القيم فيما نقلناه عنه سابقا، وذكرنا بعضها مما أثبتناه أعلاه للماء من خواص. لكن بينما معظم الخواص السببية الروحية المعنوية توجد ابتداءً بالقوّة في النفس المنبثقة، ولا توجد فيها بالفعل إلا إذا تم تفعيلها اختيارا من قبل الإنسان، فإن الملائم من الخواص المادية للحكمة من خلق النفس، مثلا حب الشهوات، أسبق بالفعل من الخواص الروحية فيها لأن الجسد المادي للإنسان يحتاج إلى الوفاء بمقومات بقائه المادية حتى والطفل في بطن أمه، لاسيما بعد نفخ الروح فيه وانبثاق نفسه ومسؤوليتها عن نموّه كإنسان، ثم بعد خروجه إلى الحياة الدنيا أول عهده بها وهو أحوج إلى غذاء البدن منه إلى غذاء الروح. لذلك تسبق بأمد بعيد تَعلّقات النفس الدنيوية، لا سيما حب الشهوات، تَعلّقاتها الأخروية، وما لم يتم تدارك النفس بالتربية وبالتزكية باكرا فإنه يعسر على الخواص الروحية إيجاد سبيل لها إلى النفس البشرية بعد ذلك، ولعل هذا هو السبب في تقديم ملهمات الفجور في النفس على ملهمات التقوى في القرآن الكريم، وربط فلاح الإنسان بالتزكية لنفسه: (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها. ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا١٠﴾ (الشمس).

* هكذا يخرج الإنسان من بطن أمه، وقد خُلق في أحسن تقويم من حيث استعداداته الفطرية لخوض ابتلاء زينة الحياة الدنيا، وليبدأ مرحلة جديدة تؤدي إلى الانبثاق الرابع والأخير الذي يؤهله للنداء الإلهي: يا أيها الإنسان. ويمكن تلخيص هذه الاستعدادات الفطرية في ثلاث خواص كلية، هي: الخواص الإدراكية، وهي معنية بكسب العلم؛ الخواص الوجدانية، وهي معنية بتحويل العلم إلى إيمان؛ والخواص الإرادية، وهي المعنية بتحويل ما كسبته الخاصيتان قبلها إلى فعل إرادي في الكون، أي فقه العمل وإحكامه (إتقانه). لهذا جاء الوحي من الله الذي خلق الإنسان مخاطبا هذه الخواص تحديدا فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ٢﴾ (الجمعة). هذه، في رأى الباحث، هي فطرة الله التي فطر الناس عليها، ولا تبديل لخلق الله، وقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري: "كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ علَى الفِطْرَةِ، فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أوْ يُنَصِّرَانِهِ، أوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ البَهِيمَةِ تُنْتَجُ البَهِيمَةَ هلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ".

3.1.4.- انبثاق الكائن البشري

* نقصد بالكائن البشري الإنسان في كلّيته، المخاطب من قبل الله تعالى ب "يا أيها الإنسان"، وهي الكلية التي يشير إليها كل إنسان ب"أنا"، وجوهرها النفس التي عرّفناها أعلاه، ولكن الإنسان في كلّيته أكبر من نفسه المنبثقة من تفاعل الروح وماء الجسد، والدليل على ذلك أنه مخاطب في القرآن الكريم بتزكية نفسه: (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)؛ وكذلك في قوله تعالى: (أخرجوا أنفسكم)؛ وفي قوله (بل الإنسان على نفسه بصيرة)، وغيرها كثير من الآيات التي تفيد أن الإنسان في كلّيته مهيمن على نفسه في كلّيتها، ومسؤول عن إدارتها. هذا الإنسان في كلّيته هذه كائن منبثق من مكوّناته الداخلية (النفس+ الجسد) والتفاعل بينها، ثم من تفاعلها مع مكونات بيئتها الخارجية. هذه البيئة الخارجية منها ما هو من عالم الشهادة، وما هو من عالم الغيب.

* هكذا ينبثق الإنسان في كلّيته من تفاعل فطرته التي فُطر عليها في أحسن تقويم مع بيئته الخارجية ليبدأ التفاعل والتأثير والتأثر بين هذه الفطرة وبين فضاء ابتلائها في زينة الحياة الدنيا، ويمضي كل إنسان في التشكّل بحسب ظروف البيئة التي ينشأ فيها، وابتلاءات الحياة وتصاريفها اللحظية التي يتقلّب فيها، وفعله وتفاعله معها، فكل إنسان في كلّيته هو في حقيقة الأمر ابن لحظته، أي يجسّده موقفه مما يجابهه في الحياة في كل لحظة وحين. وعلى الجملة، وبمعايير رؤية القرآن للعالم، هناك من هو في الصالحين، وهناك من يخلط عملا صالحا وآخر سيئا، وهناك من هو أسفل سافلين: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) (التين). وفي كل هذه التصرفات تظل النفس، بفجورها وتقواها، هي جوهر الإنسان، لكن الإنسان في كلّيته هو نظام له خواص منبثقة لا توجد في أي من مكوناته، فهو يتكلم بلسانه، وهو يمشي برجليه، وهو يبطش بيديه، وهو يبكي، وهو يضحك، وهو عجول، وهو هلوع...إلخ. كذلك للإنسان في كليته خواص اكتسبها من مكوناته الجسدية والروحية، فهو يجوع ويشبع، ويظمأ ويروى، ويعرى ويضحى، ويعنت، ويمرض ويصح، ويتألم، ويتفكّر ويتدبّر، ويخشى ويطغى، ويعدل ويظلم، ويرحم ويقسو، ويشكر ويكفر...إلخ. ومن تأثيرات بيئته الخارجية قد تتعزز فيه صفاته الروحية الربانية، أو صفاته الحيوانية، الشهوانية والغضبية.

2.3. - الإنسان كنظام

* يقتضي البحث الذي تحتويه هذه الورقة التعرّف بإيجاز على النظم الاجتماعية المستنبطة من رؤية القرآن للعالم من أربع زوايا يقتضيها المنهج النظمي، وهي: مكوّنات النظام؛ بيئة النظام؛ بنية النظام؛ مكنزمات النظام. ننطلق من هذا للتعرف على الإنسان، الذي شخّصناه أعلاه، كنظام يؤدي فعله وتفاعله الاجتماعي إلى النظم الاجتماعية الكلّية المختلفة التي ابتدرنا بها هذه الورقة.

1.2.3 - مكونات النظام

يتكوّن الإنسان كنظام من مكونين أساسيين كما أسلفنا، هما "النفس" و"الجسد"، بينما "الروح" صارت، بحسب مفهوم "الانبثاق"، مكوّنا من مكونات النفس، لذلك لم يعد لها وجود مستقل في نظام الإنسان. وربما لهذا السبب لا يوجد ذكر للروح في القرآن الكريم ككائن فاعل مستقل في الإنسان، بل الحديث كله عن النفس، وقد يرفع هذا التحليل الإشكال والخلط الذي وقع فيه علماء السلف في حديثهم عن الروح والنفس، والفرق بينهما، وقد أشار إلى ذلك الإمام ابن القيم فيما نقلناه عنه أعلاه.

2.2.3- بيئة النظام

الإنسان كنظام تتسع بيئته التي يتفاعل معها لكل فضاء الاجتماع الإنساني بمكوناته المختلفة مما ذكرت سابقا في هذا البحث، فمن عالم الشهادة هناك بيئة زينة الحياة الدنيا، بشقيها الاجتماعي والمادي، وهناك الوحي هداية للإنسان، وهناك الأرض والسماء، ومن عالم الغيب هناك الشيطان عدو الإنسان، وهناك الجن والملائكة. وفوق كل ذلك يوجد الله الخالق، عالم الغيب والشهادة.

3.2.3- بنية النظام

نعرّف بنية النظام بأنها مجموع العلاقات التي بين مكوّناته، مضافا إليها تلك التي بين هذه المكوّنات وبين عناصر بيئتها الخارجية، وتسمى الأولى بالبنية الداخلية للنظام، وتسمى الأخرى بالبنية الخارجية للنظام. ينبغي التمييز بين نوعين من العلاقات، تلك "الرابطة" لمكوّناته، و"غير الرابطة"، فالأولى هي روابط يُحدث وجودها، أو عدمه فرقا لمكونات النظام، بينما الأخرى ليست كذلك. فقط الروابط تسهم في إمساك مكونات النظام مع بعضها، ولذلك تعتبر جزءا من بنيته.

1.2.2.3. - البنية الداخلية

- تتكون البنية الداخلية للنظام من ثلاثة أنواع من الروابط تربط بين النفس والجسد، أولاها روابط حسية تتمثل في علاقات الحس من سمع، وبصر، ولمس، وشم، وذوق، وبطش بالأيدي، ومشي بالأرجل. فهذه القوى هي ضرورية للنفس حتى تتمكن من التعرّف على البيئة الخارجية التي لابد منها للإنسان لأنها، أولا؛ مصدر ضروراته الحيوية، ثم، ثانيا؛ مجال ابتلائه الذي من أجله خلق، ولكن الأدوات التي تجعل ذلك ممكنا هي أعضاء في الجسد، ومن هنا يأتي الربط البنيوي.

- النوع الثاني من الروابط الداخلية هي روابط نفسية تتمثل في روابط اللذّات والأفراح، والآلام والغموم التي تأتي إلى النفس من قبل الجسد عند تفاعله مع البيئة الخارجية، وهي روابط ضرورية تضمن للجسد سعى النفس في تحصيل مصالحه الحيوية، ودفع المفاسد عنه، فكأنها حافز يقدمه الجسد لتكون النفس في خدمته. وكل ذلك ضمان لدخول جميع الناس في ابتلاء زينة الحياة الدنيا حيث مِضمار السباق، ودليل على عظيم تدبير الخالق سبحانه وتعالى.

* النوع الثالث من الروابط الداخلية، وهي الأهم ويختص بها الإنسان دون غيره من خلق الله هي الروابط الروحية، أو الأخلاقية المتعلقة بالخواص السببية الإلهية التي اكتسبتها النفس من الروح، مثل العلم، الإيمان، الرحمة، العدل، الإحسان...إلخ، وكذلك نقيضها مثل الجهل، الكفر، القسوة، الظلم، البخل، الكبر، الهلع...إلخ، وهذه الأخيرة هي خواص نفسية منبثقة لا مكتسبة.

* هذه الخواص تحكم تفاعل النفس، ومن ثم الإنسان، مع البيئة الخارجية، ولكن النفس تحتاج غالبا إلى قوى الجسد للتعبير عن تدافع هذه القوى المعنوية فيها، ولتوظيفها في سعيها الدنيوي، فمثلا اكتساب العلم من مظانّه، قبل توظيفه، تحتاج النفس فيه إلى قوى السمع والبصر والفؤاد، وهي قوى تتبع لمنظومة الصفات الإلهية، وهذه بدورها تحتاج إلى قوى جسدية كالأذن، والعين، والدماغ والقلب. فإن كان العلم الذي تم اكتسابه يقتصر على ظاهر من الحياة الدنيا فإن توظيفه في الحياة تحتاج النفس فيه إلى قوى جسدية كالأيدي للبطش، والأرجل للمشي، والأنف للشم، واللسان للذوق وللكلام...إلخ. وإن كان العلم يراد به الدار الآخرة فتحتاج النفس أيضا في توظيفه لهذا الغرض، إضافة إلى ما سبق، إلى القوى الجسدية التي تمكّن من التدبّر في وحي الله، والتفكر في خلق السماوات والأرض، وتحويل ذلك إلى إيمان يستقر في القلب، وعمل صالح يستقر في الأرض مما يحتاج إلى توظيف كل أعضاء الجسد البشري.

2.2.2.3. - البنية الخارجية

يقابل الثلاثة أنواع من الروابط الداخلية المذكورة أعلاه ثلاثة أنواع من الروابط الخارجية التي تربط الإنسان بمجال ابتلائه في عالم الشهادة الأرضي، الأوّل، روابط مادية حيوية ضرورية تتعلق بحاجات الجسد من مأكل، ومشرب، وملبس، ومسكن، ومنكح. النوع الثاني من الروابط هي روابط الحب الشهواني بين النفس وبين زينة الحياة الدنيا: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ١٤﴾ (آل عمران). النوع الثالث من الروابط هي روابط معرفية، علمية ضرورية تربط النفس بالبيئة الخارجية الأرضية من حيث ضرورة التعرّف على مفردات تلك البيئة الأرضية وعلاقتها النفعية بالإنسان، حتى يستطيع المشي في مناكبها، وتحصيل حظوظه من متاعها.

* الروابط أعلاه تربط الإنسان بعالم الشهادة حيث الاستخلاف الابتلائي، ولكن الروابط الخارجية الأهم هي تلك التي تربط الإنسان بعالم الغيب (الله، الشيطان)، وهذه الروابط هي ذاتها التي تأسست عليها علاقة الإنسان الأولى ببيئته الخارجية عند خلق آدم وزوجه، عليهما السلام، ودخولهما الجنة، ثم خروجهما منها، وهبوطهما والشيطان إلى الأرض.

* الروابط بين النفس والشيطان هي روابط ضرورية خفية، عَلِمها من عَلِمها وجَهِلها من جَهِلها، والجهل بها لا يبطل أثرها. وهي علاقة عداوة مستحكمة بين الإنسان والشيطان منذ الخلق الأول للإنسان، سُلّط فيها الأخير على الأول في أصل فتنته في هذه الحياة الدنيا، وهو حب الشهوات المودعة في زينة الحياة الدنيا، فهو لا ينفك يزيّن له هواه فيها، ويثير ملهمات الفجور في نفسه حتى يضلّه إن استطاع، وقد استطاع، إلا قليلا. والهدف النهائي للشيطان من هذه العلاقة أن يؤثِر الإنسان الحياة الدنيا حتى يقول: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ٣٧﴾ (المؤمنون)، وهي الرؤية الدنيوية المقابلة للرؤية التوحيدية، وقد بين الوحي حقيقتيهما للنفس في تبيانه للرؤية الوجودية الكلية.

* ترتبط النفس بالله تعالى الذي خلقها بنوعين من الروابط الضرورية المعلومة للباحث من القرآن الكريم، روابط سننية كلية في إطار فعل وتفاعل الإنسان مع البيئة الخارجية، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ٢٥﴾ (الأنفال). والرابط الثاني هو رابط مباشر يربط كل عبد بخالقه، حتى وإن جهل، أو أنكر العبد هذا الرابط، وظن بطغيانه أنه مستغن عن الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ٧﴾ (العلق). وهذا الرابط هو الرابط المصدق والمهيمن على جميع الروابط الأخرى للإنسان، لأنه يقوم على علاقة خالق ومخلوق، ورب ومربوب، ومعبود وعابد...إلخ، فمن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا، ومن نهى عن القرآن ونأى عنه أهلك نفسه وهو لا يشعر، ومن جعل علاقته بالمال والولد مُقدَّمة على علاقته بالله مكر الله به في ماله وولده فلم يزده ماله وولده إلا خسارا، فقد قضى الله تعالى ألا يُعبد إلا إياه، وأن من أعرض عن ذكره فإن له معيشة ضنكا، ويحشره يوم القيامة أعمى.

4.2.3. - مكنزمات النظام

لقد وصفنا نظام الإنسان في مكوناته، وبيئته، ونسيجه وتبقى أن نبين كيف يعمل هذا النظام ليحقق الغرض منه، وهو ابتلاء الإنسان في زينة الحياة الدنيا لينظر الله تعالى كيف يعمل فيها، أيعمل فيها صالحا فيكون شاكرا متحققا بالعبادة لربه، أم يفسد فيها ويسفك الدماء فيكون كافرا بنعمة ربه، أم ينقسم الناس بين هذا وذاك فمنهم كافر ومنهم مؤمن؟ أي نريد أن نقف على طبيعة المكنزمات التي وضعها الله في نظام الإنسان وكيف تعمل بحيث يدخل جميع الناس في الابتلاء.

* المكنزمات الضرورية للنظام هي مكنزمات "**البقاء**"، وتبدأ من حاجة الجسد إلى الوفاء بضروراته الحيوية من الغذاء ومن الوقاع حتى لا يهلك فينقرض النوع البشري. وهذه الضرورات الحيوية لا يمكن الوفاء بها إلا من مكونات زينة الحياة الدنيا (المال، البنون)، لذلك عندما يفتقر الجسد إلى ضروریاته الحيوية تُطلَق عمليات فيزيائية وكيميائية وحيوية داخل الجسد تعبر عن حاجة الجسد إلى الوفاء بالضرورة المعينة، سواء كانت مأكل، مشرب، ملبس، مسكن، أو وقاع. يقوم الجسد من جانبه بجعل النفس تحس بأهمية الوفاء بهذه الضرورة من خلال مكنزمات "**التشويش**" الحيوية على قوى النفس الأساسية التي تحتاج في توظيفها إلى الجسد، مثل قوى السمع، البصر، التفكير...إلخ حيث تضعف هذه القوى، بحسب مستوى حدة الضرورة الحيوية، إلى أن تتوقف تماما عن العمل. تلجأ النفس، للوصول إلى الوفاء بحاجات الجسد، إلى إطلاق مكنزمات نفسية تضطر الإنسان في كليته إلى الإسراع في الوفاء بتلك الحاجات، مثل مكنزم "**الجوع**"، مكنزم "**العُري**"، مكنزم "**الظمأ**"، مكنزم "**الإضحاء**"، ومكنزم "**العنت**" الجنسي. هذه المكنزمات النفسية بالغة الفعالية، إذ تُحدث كل منها ألما معينا يناسب نوع الضرورة الحيوية الواجب الوفاء بها حتى إن الإنسان ليعجز عن احتمالها، ومن ثم يُطلِق من جانبه المكنزم الأعظم، ألا وهي "**الفعل الاجتماعي**" الجالب لما هو مطلوب من حاجيات الجسد. هذا الفعل هو الذي يضمن تفاعل الإنسان مع بيئته الخارجية، وهو المراد من عمل كل هذه المكنزمات الفيزيائية والكيميائية والحيوية والنفسية.

* الجسد عندما يستوفي حاجاته الضرورية من خلال عمل المكنزمات الصاعدة منه، ومن النفس إلى البيئة الخارجية تبدأ مكنزمات معاكسة، جسدية ونفسية، في العمل حتى يتوقف الجسد عن تناول المزيد من مصادر تلك الضروريات الحيوية، فتنطلق عمليات فيزيائية وكيميائية وحيوية تناسب هذه الحال، وبدوره ينقل الجسد هذه المعلومات إلى النفس حتى تقوم هي بدورها في إطلاق المكنزمات المناسبة المنذرة للإنسان بالتوقف عن الفعل الذي كان. لكن النفس عند هذه المرحلة تكون قد ذاقت لذّة الشهوات الكامنة في زينة الحياة الدنيا التي سعى إليها الإنسان ابتداء للوفاء بضرورات الجسد الحيوية، ويبدأ نوع جديد من الطلب على "المال" و"البنين"، مركّب فوق طلب الضرورات الحيوية، ويتأسس على إشباع شهوات النفس من متاع زينة الحياة الدنيا، أهم مكنزماته هو "حب الشهوات"، أو "الهوى" الفطري في النفس البشرية.

* الفعل الاجتماعي الابتدائي الذي يبتدره الإنسان للوفاء بضرورات الجسد الحيوية يصله بجميع مكونات بيئته الخارجية: المال، البنون، الأرض، السماء، الوحي، الشيطان، ومن وراء ذلك يصله بالله الذي خلقه، صلة مباشرة ومن خلال السنن الاجتماعية. هكذا يدخل الإنسان في أتون الابتلاء قهرا لا اختيارا، ليحقق من بعد ذلك باختياره مسارات حياته فيه، ومآلاتها في الدنيا: حياة طيبة، أو معيشة ضنكا، ومآلاتها في الآخرة: فريق في الجنة وفريق في السعير. هذه المرحلة تشهد أيضا، بسبب تفاعل الإنسان مع أخيه الإنسان، ومع مكونات بيئته الخارجية، ومع البنية الرابطة بين هذه المكونات، نشأة المجتمعات، وتأطير الفعل الاجتماعي برؤية العالم التي يستبطنها الإنسان، ونظمها المعيارية والقيمية، وكذلك انبثاق قوى علاقاتية جديدة في النفس تناسب حالها في الابتلاء، وفي علاقتها بهذه المكونات، فالمؤمن بالله تعالى تنبثق في نفسه روابط ومكنزمات الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، والخشية والإنابة، والحب..إلخ، وعلى الجملة يمكن أن نعبّر عن هذه الأحوال بأنها "ملهمات التقوى". ولكن بسبب علاقاته بزينة الحياة الدنيا، وبالشيطان تنبثق أيضا قوى علاقاتية تناسب هذه العلاقة، مثل الهلع، الشح، الكبر، الطمع، الحسد...إلخ، ويمكن إجمال هذه القوى بأنها "ملهمات الفجور". يتدافع هذان النوعان من القوى العلاقاتية في نفس المؤمن، ويحكم هذا التدافع تجربته الابتلائية، أما غير المؤمن فتهيمن "ملهمات الفجور" على نفسه في علاقته بمكونات بيئته الخارجية، وفي علاقته بربه.

* هذه المرحلة تشهد عمليات التدافع الاجتماعي من خلال الفعل والتفاعل الاجتماعي مما يؤدي إلى نشأة المجتمعات بنظمها الاجتماعية، والمعرفية، والاتصالية، والثقافية المختلفة، المتحيزة في الزمان والمكان، وانطلاق مكنزمات الابتلاء التي تعمل من خلال هذه النظم، إما بالمحافظة عليها، أو بتغييرها، أو بتدميرها، ولله عاقبة الأمور. الشكل رقم (6) أعلاه جسّد انبثاق الإنسان كنظام معقّد من خلال تفاعل مكوناته المتمثلة في النفس والجسد مع بيئة عالم الشهادة (المال، البنون، الوحي، الأرض، السماوات)، ثم مع بيئة عالم الغيب (الشياطين، الجن، الملائكة)، ثم من وراء ذلك الله تعالى، عالم الغيب والشهادة.

3.3. - مدخل إلى النظم الاجتماعية الكلية من خلال المنهج النظمي

الفائدة الحقيقية من هذا التمرين النظري هي فائدة منهجية، إذ تصبح هذه النظم الكلية هي الضابط لأي تنظير يتعلق بنظم جزئية تنشأ من داخلها، ابتداء من النظام النفسي للإنسان، مرورا بالفعل والتفاعل الاجتماعي، والنظم الاجتماعية الجزئية الوسيطة التي يؤدي إليها، سواء كانت مؤسسات كالأسرة، أو منظمات كالمدرسة والشركة، وانتهاء بالنظم الجزئية الأعم كالنظام التربوي، النظام الاقتصادي، النظام الثقافي، النظام السياسي...إلخ. التنظير للنظام الاقتصادي التوحيدي، مثلا، لا ينبغي أن يناقض أي معطى من معطياته تلك التي ثبتت للنظام الاجتماعي التوحيدي الكلي، لأن الأول جزء من الثاني.

1.3.3- النظام الاجتماعي العام

النظام الاجتماعي العام هو نظام افتراضي كما أسلفنا عند تعريفنا له في الشكل رقم (2) أعلاه، والغرض من التحليل هو أن نقف على طريقة عمل النظام لتحقيق وظائفه المفترضه، ولمعرفة اتجاهات التغيير فيه، والمكنزمات الفاعلة في النظام، في غياب الوحي الإلهي من السماء مما يتبين معه ضرورة إرسال الرسل، ونزول الوحي بهداية السماء إلى الناس. الوظيفة الأساسية لهذا النظام، في غياب هداية الوحي، هي تمكين الناس الذين يكوّنونه من إشباع حاجاتهم الحيوية، والاجتماعية، والروحية. وهذه الأخيرة ناجمة عن وجود الصفات الإلهية في النفس فطرة تربط الإنسان بعالم الغيب، وتدعوه إلى الوفاء بحقها في نفسه، وفي بيئته الداخلية والخارجية، أيا كان الغيب الذي يؤمن به، ويأوي إلى أمانه.

1.1.3.3- مكونات النظام

يتكون النظام من الناس كما عرّفناهم أعلاه، ومما عملته أيديهم في موارد الطبيعة، ونفترض أنهم جميعا على الفطرة، أي لا مؤمنين ولا كافرين، ولكن لديهم إمكان أي من الخيارين، كما نفترض عدم نزول أي وحي من السماء للتأثير على خياراتهم الحياتية.

2.1.3.3. - بيئة النظام

تتكون بيئة النظام من بيئتين، بيئة من عالم الشهادة تتمثل في الأرض والسماء، وبيئة من عالم الغيب تتمثل في الشياطين خاصة، والجن عموما، والملائكة، ثم الله تعالى من ورائهم محيط. الشكل رقم (6) أعلاه يجسد هذا البناء الوجودي في عالم الإنسان، علما بأن "المال" و"البنون" أصبحا في صلب تركيبة النظام الاجتماعي بعد أن كانا جزءا من مكونات بيئة عالم الشهادة في نظام الإنسان الذي سبق هذا النظام، وتعرفنا عليه أعلاه. لذلك اقتصرت بيئة عالم الشهادة على مكونين فقط لهذا النظام، هما الأرض والسماء، وتحوّل متغيرا "المال" و"البنون" إلى نظم اجتماعية جزئية بما عملته يد الإنسان فيهما – الفعل والتفاعل الاجتماعي- كالنظام التربوي، الاقتصادي، الاجتماعي، السياسي، والثقافي.

3.1.3.4- نسيج النظام

يتكون نسيج النظام (بنيته) من جملة العلاقات الداخلية التي تربط مكونات النظام مع بعضها، وكذلك جملة الروابط الخارجية التي تربط مكونات النظام مع مكونات بيئته الخارجية. الروابط الداخلية بين الأفراد المكونين للنظام تحددها طبيعة العلاقة الاجتماعية التي تؤطر وتحدد نوع الروابط في إطار الفعل والتفاعل الاجتماعي مع زينة الحياة الدنيا (المال، البنون)، ففي إطار متغير "البنين" المعبر عن العلاقات البيولوجية بين الرجال والنساء، وما يترتب عليها من علاقات رحمية هناك الروابط العاطفية من مودة ورحمة بين المرء وزوجه مثلا، وكذلك علاقات حب وكراهية تتسم بها العلاقات الرحمية...إلخ. النسيج الذي يربط مكونات النظام مع متغير "المال" المعبر عن علاقات الإنتاج والتوزيع والاستهلاك هناك روابط الفعل الاجتماعي مثل المشاركة والتعاون والتشاور، التنافس والصراع، التبادل والإعلام، التراضي والإكراه، الخضوع والثورة...إلخ. وهناك الروابط العقدية التي تربط بين أصحاب المعتقد الواحد، وهناك الروابط المعيارية (أخلاقية، قانونية) تضبط العلاقات بين الناس.

روابط الفعل الاجتماعي هي روابط من حيث إنها تجمع بين شخصين، أو أكثر، في إطار النظم الاجتماعية الجزئية الضرورية التي تحتمها طبيعة التفاعل بين العناصر الكونية المنتجة للاجتماع الإنساني، كما بينا ذلك في رؤية القرآن للعالم، وهي: النفس (الإنسان)؛ المال؛ البنون؛ العلم؛ الهوى. هذه الروابط بطبيعتها ديناميكية تؤدي إلى إحداث تغيير في الذين تربطهم، وفي البنية الاجتماعية التي تؤطرهم.

* الروابط الخارجية هي روابط بين الناس المكونين للنظام الدنيوي من جهة وبين مكونات بيئة عالم الشهادة، وبيئة عالم الغيب، ثم الله تعالى من جهة أخرى. الروابط الفاعلة في بيئة عالم الشهادة هي بين الناس وبين موارد الأرض الطبيعية، وهي علاقة نفعية يتم فيها توظيف العلم بظاهر من الحياة الدنيا الذي يكتسبه المجتمع من خلال الفعل والتفاعل بين أفراده، وبينهم وبين بيئتهم الخارجية، لإشباع حاجاتهم الفطرية. والعلم بظاهر من الحياة الدنيا يظل دوره وظيفيا فقط، وخاضع لإله الهوى مهما تطور وعي المجتمع ليأخذ بعدا عقلانيا في علاقاته الاجتماعية.
* الروابط الأخرى مع البيئة الخارجية، في غياب الوحي، تحتمل كل أنواع الاعتقاد، وهي أساسا علاقة خضوع لقوى غيبية، تتسم بالخوف والرجاء، فقد تكون القوة الغيبية هي الإله الواحد، وقد تكون الجن، وقد تكون الشمس والقمر، وقد تكون النار، وقد تكون أساطير الأولين. ذلك أن الضعف الذي يلازم الإنسان فطرة يلجئه إلى البحث عن ظهير تتجسد فيه القوة التي يفتقدها، وغالبا ما تكون هذه القوة غيبية يمنحها خيال الإنسان كل ما يريده من صفات الكمال التي يفتقدها.

4.1.3.3- مكنزمات النظام

لقد ذكرنا في القسم السابق المتعلق بنظام الإنسان المكنزمات التي تنقل الإنسان إلى قلب الابتلاء في زينة الحياة الدنيا، وهي مكنزمات فيزيائية، كيميائية، حيوية ونفسية، أما هنا فهي مكنزمات اجتماعية وروحية من خلال عمليات الفعل والتفاعل الاجتماعي، في إطار النسيج الاجتماعي الداخلي والخارجي. لنتذكر أن المكنزمات مقصود بها العمليات الجوهرية، أو مسارات الفعل التي تتم داخل النظام وتجعله يعمل بالطريقة التي تمكنه من أداء وظيفته، وهذه المكنزمات في العادة لا تُرى بل يقوم الباحث، كما يفعل في إنتاج الفرضيات العلمية، من خلال الخيال المبدع، محفزا ومقيدا بالبيانات المتوفرة له عن الموضوع، بتقديم نظريات تتعلق بالمكنزمات موضوع البحث، ويمكن اختبارها تجريبيا. ويقوم الاختبار التجريبي بتأكيد، أو دحض صحة تلك الفرضيات المتعلقة بالمكنزمات.

* نوعان من المكنزمات الابتدائية التي تنجم عن تفاعل الإنسان مع عنصر (البنين) في زينة الحياة الدنيا، النوع الأول يتمثل في مكنزمات "**حب الشهوات**"، لا سيما شهوة "**الجنس**"، وشهوة "**البنوّة**"، التي تؤدي إلى إقامة المؤسسات الرحمية كالأسرة، والرهط والقبيلة...إلخ. النوع الثاني من المكنزمات يمكن تسميتها بالمكنزمات العاطفية، مثل "**المودة**" و"**الرحمة**"، التي تعمل عل استدامة العلاقة الزوجية بين الزوجين، و"**الغيرة**" التي منها المحمود ومنها المذموم. إن افتراض عدم وجود وحي الهداية من السماء يجعل هذه المكنزمات، لا سيما حب الشهوات، تحدث أنواع شتى من التغيير الاجتماعي أساسه التكاثر في الأموال والأولاد، مما ينتج مكنزمات أخرى مثل " **الإثم**" و"**العدوان**"، وهي مكنزمات الصراع الاجتماعي التي تؤدي إلى نقض عرى المجتمع. والمطلوب من البحث العلمي النُظمي دراسة كيف تنشأ مثل هذه المكنزمات داخل النظم الاجتماعية، وكيف تعمل بما يؤدي إلى تفسير عميق للظواهر الاجتماعية المعبرة عن التغيير الاجتماعي الذي تحدثه في مكونات ونسيج المجتمع محل الدراسة.

* مكنزمات "**حب الشهوات**" في مجال (المال) تؤدي إلى التكاثر في الإنتاج، والاستهلاك، ومن ثم قيام نظم الملكية المختلفة لعناصر الإنتاج، ولوسائله، ولعلاقاته، ونظم التبادل السلعي كالأسواق، ونظم الاستهلاك الفردي والجمعي، في المنازل وفي الأسواق.. كل هذه النظم لها مكنزماتها، وهي، في غياب الوحي، يغلب أن تكون مكنزمات "**الصراع**"، "**التنافس**"، "**الطغيان**"، أو، بلغة القرآن الكريم، مكنزمات "**التعاون على الإثم والعدوان**" و"**العلو في الأرض**"، وهي في جملتها عمليات اجتماعية تؤدي إلى التمايز الطبقي الذي يؤدي بدوره إلى مكنزمات جديدة تنتهي بهدم المجتمع. طبعا لا يمنع هذا أن تكون هناك مكنزمات حافظة للمجتمع تعمل في الاتجاه المعاكس، في ذات الوقت مثل مكنزمات "**التعاون**"، "**المشاركة**"، "**الصلح**"...إلخ، مما يقلل من أثر المكنزمات الهادمة له، لكنها مكنزمات لا تصمد أمام الأثر الاجتماعي المدمر للمكنزمات الجوهرية المحددة لهوية هذا النوع من النظم، وهي كما بيّنّا مكنزمات "**حب الشهوات**"، و"**التكاثر**" في الأموال والأولاد.

* المكنزمات الداخلية أعلاه تتداخل معها، سلبا وإيجابا، مكنزمات خارجية تنتج من تفاعل النظام الاجتماعي العام مع مكونات بيئته الخارجية، ومع الخالق المتعالي، وهو تداخل يحدد الحال (State) التي عليها النظام الاجتماعي في لحظة زمانية ومكانية محددة. الكائن الخارجي الأكثر تأثيرا في علاقته بالإنسان، في غياب الوحي افتراضا، هو الشيطان، عدو الإنسان منذ الخلق الأول: ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ١١٧﴾ (طه)، وهو مسلّط على بني آدم إلى قيام الساعة، ومأذون له في مشاركتهم حتى في الأموال والأولاد: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا٦٤﴾ (الإسراء). هذه الآية وحدها تذكر أربعة أنواع من المكنزمات الفعالة التي يستخدمها الشيطان ضد الإنسان، وهي في إطار النظام الاجتماعي العام الذي نستعرض ملامحه هنا لا يكاد ينجو من تأثيرها المدمر أحد، وهي: **"الاستفزاز بالصوت"**؛ **"الجلب بالخيل والرجِل"**؛ **"المشاركة في الأموال والأولاد"**؛

* المكنزمات الجوهرية الفاعلة في العلاقة المباشرة بين الخالق سبحانه وتعالى وبين النظام الاجتماعي العام من خلال مكوناته ونسيجه هي مسارات فعل في اتجاه واحد من الرب إلى العباد، وهي مكنزمات "**الرحمة**"، و"**الرأفة**"، فما كان الله ليعذبهم رغم ضلالهم حتى يبعث رسولا، وقد افترضنا عدم إرسال الرسول في هذا النظام الفطري. وقد قال الله تعالى إنه بالناس رؤوف رحيم، وهي رحمة عامة في هذه الدنيا لكل الناس لا تترتب عليها هداية. ومكنزمات الرحمة الإلهية لا يحصيها إلا الله، وقد قال تعالى "وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها". ومن مكنزمات الرحمة مكنزم "**التسخير**"، فقد قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ١٣﴾ (الجاثية)، ومكنزم "**التمكين**": ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ١٠﴾ (الأعراف).

* هناك العلاقة غير المباشرة بين الناس وبين ربهم، ومكنزماتها هي السنن الاجتماعية الحاكمة لجميع النظم الاجتماعية بما فيها النظام الاجتماعي العام الذي نتعرف عليه الآن، وهي سنن لا تتبدل، ولا تتحول: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا٤٣﴾ (فاطر). مثال لهذه السنن العامة سنة **"التدافع"**: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ٢٥١﴾ (البقرة).

* ينتهي استعراضنا لأهم سمات النظام الاجتماعي الفطري العام إلى أنه نظام، إذا ترك دون تدخل من خارجه إلا من الشيطان، تنتهي تطبيقاته العملية في الزمان والمكان إلى نظم اجتماعية دنيوية بحكم الفطرة البشرية، وبحكم البنية الاجتماعية للنظام، سواء في علاقاتها الداخلية، أو في علاقة مكونات النظام مع مكونات البيئة الخارجية، وبمقتضى المكنزمات التي تتحكم في عمليات التغيير الاجتماعي. وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة في آيات كثيرة، كما يقف تاريخ الاجتماع الإنساني شاهدا على ذلك. إذن قضاء الله تعالى ألا يعبد الناس إلا إياه يقتضي إنزال الوحي من السماء، وإرسال الرسل مبشرين ومنذرين.

2.3.3. - النظام الاجتماعي الدنيوي

* هذا النظام يمثله الشكل رقم (3) في هذا البحث، وهو أحد نهايات النظام الاجتماعي الفطري العام، ويتأسس على فرض نزول الوحي، وإرسال الرسل، واستحباب الناس الذين يكوّنون هذا النظام الكفر على الإيمان، فهو إذن نظام اجتماعي مصنوع، وليس فطري، بل تم تصميمه ليحقق مقاصد حياتية محددة. الأوفق أن نبدأ برصد الخواص الوجودية والمعرفية والمنهجية التي أثبتها القرآن الكريم لهذا النظام، ثم توظيف هذه الخواص في التعرف على سماته النظمية. لقد أثبت القرآن الكريم لهذا النظام الاجتماعي الدنيوي الحقائق الآتية:

1- **إيثار الحياة الدنيا على الآخرة؛**
2- **تعظيم متاع الحياة الدنيا** كمقصد نهائي للناس الذين يتكون منهم النظام؛
3- **العلم الحسّي التجريبي هو أساس النظام المعرفي؛**
4- **جميع أعمالهم سيئة**، بالتصنيف القرآني للعمل؛
5- **الإفساد في الأرض، وتقطيع الأرحام** هو المحصلة النهائية للنظام.

1.2.3.3. - مكونات النظام

* يتكون النظام الاجتماعي الدنيوي المثال (Ideal Type) من ناس تنطبق عليهم الخواص الخمسة أعلاه، فعالم الشهادة هو وحده المحدد لرؤيتهم للعالم، وتعظيم متاع الحياة الدنيا هو وحده مقصدهم، والعلم بظاهر من الحياة الدنيا هو وسيلتهم، وملهمات الفجور في النفس هي هاديهم إلى الفعل والتفاعل الاجتماعي.

2.2.3.3. - بيئة النظام

* تشمل بيئة النظام مكونات عالم الشهادة (الأرض، السماء، الوحي)، ومكونات عالم الغيب (الشياطين، الجن، الملائكة)، ثم الله المتعالي عالِم الغيب والشهادة. ينبغي التنبيه إلى أن "المال" و"البنون" يظهران في الشكل رقم (6) كمكونين من مكونات بيئة عالم الشهادة لنظام الإنسان، لكنهما هنا يصيران في صلب تركيبة النظام الاجتماعي، لذلك لا يشكلان مكونين من مكونات بيئته الخارجية، بل يظهرا في شكل نظم اجتماعية جزئية بما عملته يد الإنسان فيهما.

3.2.3.4- نسيج النظام

* يتكّون نسيج النظام (بنيته) من جملة العلاقات الداخلية التي تربط مكونات النظام مع بعضها، وكذلك جملة الروابط الخارجية التي تربط مكونات النظام مع مكونات بيئته الخارجية، مما يعني أن لدينا نسيج داخلي، وآخر خارجي. البيئة الخارجية للنظام تأتي على ثلاثة مستويات، بيئة عالم الشهادة المكونة من الأرض، السماوات والوحي، وبيئة عالم الغيب المكونة من الشياطين، الجن والملائكة، ثم الروابط التي تربط الناس بخالقهم تبارك وتعالى.

* إن افتراض نزول الوحي، وإرسال الرسل بالبلاغ، ودعوة الناس لعبادة الله وحده، وإقامة دين التوحيد في الواقع الاجتماعي، مقرونا بافتراض تكذيب الناس للرسل، واستحباب الكفر على الإيمان، ومن ثم إقامة نظام اجتماعي يحكمه هوى الناس الذين يكوّنونه يُحدث فرقا جوهريا في التحليل عما فعلناه في النظام الاجتماعي الفطري. الوحي يحدد نظاما عقديا، وآخر معياريا، أخلاقيا وقانونيا، بمقتضاه تنشأ أحكام طبيعتها "أفعل" ولا "تفعل" تحكم الفعل والتفاعل الاجتماعي، وتصاغ مؤسسات وتنظيمات تيسر هذا الفعل والتفاعل، فمن رضي بهذا النظام الاجتماعي وأقامه فهو مؤمن، ومن ردّه فهو كافر، وهو ما افترضناه في هذا النظام الاجتماعي الدنيوي الذي نحن بصدد تحليله. وكلا الموقفين تنبني عليه علاقة بين الله تعالى وبين عباده تصبغ كل شيء في النظامين: المكوّنات؛ البيئة؛ النسيج؛ المكنزمات؛

* العلاقات الجوهرية الرابطة في مجال البنين هي ابتداء علاقات بيولوجية جنسية تربط الرجال بالنساء، وهي في هذا النظام الاجتماعي الدنيوي طابعها الغالب هو الفحشاء والمنكر، سواء كانت علاقات طبيعية بين الرجال والنساء، أم غير طبيعية كالمثلية، وزنا المحارم، وقد صدّق تاريخ المجتمعات البشرية، لا سيما ما بين أيدينا منها، كل ذلك؛ ما وثّقه القرآن منها، وما دونته الأقلام، حتى إن الله تعالى أنزل قرآنا يحرّم زنا المحارم.

* الروابط الرحمية المترتبة على الروابط الجنسية طابعها العصبية الجاهلية، وفي إطارها نجد علاقات الحب، والولاء والبراء، والنصرة، والبغضاء، والبغي، والإثم والعدوان...إلخ. وهناك الروابط العقدية التي تربط بين أصحاب المعتقد الواحد، وهي معتقدات وثنية، كفرية وشركية. وهناك الروابط المعيارية (أخلاقية، قانونية) يضع أسسها الملأ النافذ في المجتمع، تضمن حماية مصالحه، وتحدد العلاقات بين الناس: وفوق كل ذلك هناك روابط الفعل الاجتماعي في النظم الجزئية (اقتصادية، سياسية، تربوية، معرفية، ثقافية) مثل المشاركة والتعاون والتشاور، التنافس والصراع، التبادل والإعلام، التراضي والإكراه، الخضوع والثورة...إلخ.

* العلاقات الرابطة في مجال المال في هذا النظام الاجتماعي الدنيوي جوهرها أكل أموال الناس بالباطل عن طريق الربا، والكنز، والتطفيف في المكيال والميزان، وكل أنواع الغرر، وعدم الوفاء بالعقود في مجال الإنتاج والتوزيع، والتمتع والأكل كما تأكل الأنعام في مجال الاستهلاك، وتوظيف المال في المسافحة واتخاذ الأخدان، وإكراه النساء على البغاء، وكل أنواع تجارة الجنس الجالبة للمال الحرام، المؤدية إلى الإفساد في الأرض وتقطيع الأرحام مما ذكر القرآن الكريم. هناك أيضا علاقات مالية فرعونية، قارونية تقوم على بطش الجبارين وما تؤدي إليه من حروب فيها الغالب والمغلوب، والناهب والمنهوب، والقوي والمستضعف، وقد ضرب لنا القرآن الكريم أمثلة عديدة لهذا النوع من العلاقات المالية في النظم الاجتماعية التاريخية

* الشكل رقم (6) يبين أن النسيج الخارجي للنظام الدنيوي ينبني على علاقات ثلاث، إحداها بين مكونات النظام ومكونات عالم الشهادة، لاسيما الأرض والسماوات، لأن مكوّن الوحي قد تم الإدبار عنه من قِبل مكوني النظام، فعلاقتهم به هي علاقة "**إدبار**"، والثانية مع مكونات عالم الغيب من الجن والشياطين والملائكة، ثم الأخيرة علاقة مع الله تعالى، عالم الغيب والشهادة. روابط الإنسان الدنيوي بالأرض والسموات طبيعتها "**الإفساد**" فيهما بسبب النظر إليهما فقط كمصدر للموارد المادية التي هي أساس تعظيم المتاع الدنيوي، الذي مكنزماته "**اتباع الهوى**"، و"**حب الشهوات**".

* الروابط مع عالم الغيب أهمها تلك التي تربط مكوّنات النظام الاجتماعي الدنيوي بالشيطان، عدو الإنسان، وهي علاقات **"ولاية"** من قِبل الإنسان، وعلاقة **"استحواذ"** من قِبل الشيطان، ويجمعهما علاقة **"القرين"** بالقرين.

* هناك أيضا روابط مع الجن عموما طبيعتها **"الولاية"** ذكرها القرآن الكريم: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا٦﴾ (الجن)؛ ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ٤١﴾ (سبأ)؛ ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ١٢٨ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ١٢٩﴾ (الأنعام).

* العلاقة بين الله تعالى وبين الناس المكوّنين للنظام الاجتماعي الدنيوي هي في جوهرها علاقة "**عداء**": ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ٩٨﴾ (البقرة)؛ وهي علاقة "**مكر**": ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ٣٠﴾ (الأنفال)؛ هناك أيضا علاقة "**الكيد**" و"**الاستدراج**": ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا١٦﴾ (الطارق)؛ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٞ١٨٣﴾ (الأعراف)؛ ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ٤٢﴾ (الطور)؛ ثم هناك علاقة "**الاستهزاء**": ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ١٥﴾ (البقرة)، وعلاقة "**النسيان**": ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۘ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ٦٧﴾(التوبة)؛ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ١٩﴾ (الحشر).

* رغم علاقة العداء بين الله تعالى والكفار لكنهم يدخلون أيضا في علاقة "**الرأفة**"، و"**الرحمة**" الإلهية التي تشمل جميع العباد: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠﴾ (آل عمران)؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥﴾ (الحج)، والله تعالى يقدّر متى ينفذ قدره في عباده بإحدى العلاقتين، في الزمان والمكان.

* هذه العلاقة بين الله تعالى وبين الناس في هذا النظام تأخذ مستويين كما أسلفنا، مستوى العلاقة المباشرة الفورية بين العبد وخالقه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ (البقرة)؛ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦١﴾ (يونس)؛ ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥﴾ (هود). وهناك مستوى العلاقة السننية المتراخية في إطار الجماعة من الناس، حتى وإن لم يكن العبد ممن ارتكبوا الأفعال التي أدخلتهم في دائرة السنة المعنية: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾ (الأنفال).

4.2.3.3. - مكنزمات النظام

* النتيجة الجوهرية من التحليل السابق هي أن البنية، أو النسيج في النظام الاجتماعي لا يقتصر فقط على النسيج الاجتماعي المبني على روابط الفعل والتفاعل الاجتماعي بين الناس كما تدعي الفلسفة المادية، بل يتمدد هذا النسيج في عالم الغيب فيشمل روابط هي أقوى بكثير من تلك التي تربط بين الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. إذن ليس هناك نظام اجتماعي بشري، في الرؤية القرآنية للعالم، إلا وله مكوّن وجودي غيبي هو جزء من نسيجه، وجزء من مكنزماته، ومن ثم يؤثر سببيا في طريقة عمل النظام، وفي الأحداث التي تكتنفه، والتغيير الذي يجري فيه، وفي نتائجه المقصودة وغير المقصودة. إذن لا تستقيم الدراسة العلمية للنظام الاجتماعي إلا بأخذ هذه الأبعاد الغيبية في الاعتبار، وهو أمر يثير تحديات منهجية حقيقية لا يمكن التعامل معها من خلال المناهج التي تفترض أن النظام الاجتماعي هو نظام مادي بحت، مثله مثل أي نظام طبيعي، كما يؤكد ذلك "ماريو بنج" في منهجه النُظمي الذي استعرضناه في بحثنا السابق لهذا البحث. وهذا لا يعني عدم الاستفادة من هذه المناهج بل المطلوب تطويرها في إطار نظريات وجودية ومعرفية ومنهجية تؤسس على رؤية القرآن للعالم التي منها تم استنباط النظم الاجتماعية التي نعكف في هذا البحث على دراستها.

* المكنزمات التي تعمل في هذا النظام الاجتماعي الدنيوي تأتي على أربعة مستويات، المستوى الأول هو المكنزمات الاجتماعية الداخلية الناتجة عن الفعل والتفاعل الاجتماعي بين مكونات النظام، والمستوى الثاني في إطار الروابط مع بيئة عالم الشهادة ممثلة في الأرض والسماء، والمستوى الثالث مع البيئة الغيبية ممثلة في الشياطين، الجن والملائكة، والمستوى الرابع هو مستوى الروابط بين الناس والخالق تبارك وتعالى.

* المكنزمات التي تنشأ في إطار العلاقات الداخلية للنظام تأتي على ثلاثة مستويات؛ مستوى (جزئي- جزئي) ويتعلق بالمكنزمات التي تنتج الفعل الاجتماعي الفردي؛ مستوى (كلي- جزئي) ويتعلق بالمكنزمات الاجتماعية التي تؤطّر الفرد وفعله، سواء على المستوى الأخلاقي والقانوني، أو المستوى الثقافي، أو الفرص التي يتيحها الواقع الاجتماعي أمام الفعل المعيّن في الزمان والمكان؛ مستوى (جزئي- كلي) ويتعلق بالمكنزمات التي تؤدي بالفعل الاجتماعي إلى إحداث التغيير الاجتماعي في بنية النظام، ومن ثم في النظام الاجتماعي ككل. مكنزمات التغيير الاجتماعي قد تأخذ طابع العشوائية إن جاءت من عوامل استثنائية مثل التغيرات المناخية، أو تكون نتيجة تطور طبيعي متراكم في المجتمع فتأخذ طابع "**الإصلاح**" الاجتماعي، وقد تأخذ طابع "**الثورة**"، ولكن في كل الأحوال فإن النظام الدنيوي، الذي استحب الناس فيه الكفر على الإيمان، سوف يظل يعيد إنتاج نفسه، وإن اختلفت صورته في الزمان والمكان، وربما لهذا السبب كان ذلك الدعاء الخالد من سيدنا نوح، عليه السلام: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارًا٢٧﴾ (نوح).

* المكنزمات في هذا المستوى يمكن أن نجملها تحت مسمي مكنزمات **"حب الشهوات"**، وأي مكنزمات أخرى مكملة لها ينشؤها المجتمع لتيسير هذا المقصد الدنيوي الجوهري المحدد لهوية النظام، والمتمدد في كل النظم الاجتماعية الجزئية (تربية، اقتصاد، سياسة، ثقافة...إلخ). وهي مكنزمات تنشأ على المستوى النفسي، وقد ذكرنا سابقا في هذا البحث تلك المكنزمات الفطرية التي تدفع الإنسان إلى ابتداء الفعل الاجتماعي الموصل إلى زينة الحياة الدنيا (المال، البنون) تلبية للحاجات الفطرية للجسم البشري، وأن ذلك يؤدي بالضرورة إلى إقحام الإنسان في ابتلاء حب الشهوات الثاوي في هذه الزينة، لتبدأ من بعد ذلك، من خلال التفاعل الاجتماعي، أولى الخطوات نحو ظهور المجتمعات البشرية بكل تعقيداتها.

* المستوى الثاني من المكنزمات تعمل على مستوى الروابط بين مكونات النظام وبيئة عالم الشهادة ممثلة في الأرض والسماوات، ويمكن إجمالها تحت مسمى مكنزمات **"الفساد"**: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ٤١﴾ (الروم). هذا الفساد سببه هو أن الفعل والتفاعل الاجتماعي في هذا النظام الدنيوي يتأسس على اتباع الهوى، وإشباع النفس من شهوات المتاع الدنيوي، سواء كان مصدره موارد الأرض، أو موارد السماء، وما عملته يد الإنسان في هذه الموارد من قيمة مضافة. وهذا الفساد الذي ظهر في البر والبحر يمكن أن يتمدد إلى إفساد السماوات ومن فيهن لولا أن الحق لا يتبع أهواء الناس: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ٧١﴾ (المؤمنون).

* المستوى الثالث من المكنزمات هو المستوى الذي ينشأ من تفاعل الإنسان الدنيوي مع الشيطان، وهي مكنزمات تتأتى من الروابط البنيوية بين الشيطان وبين مكونات النظام الدنيوي كما بيناها أعلاه، ومن خلال هذه المكنزمات يؤثر الشيطان بصورة فعالة في خيارات الفعل الاجتماعي المختلفة التي يقوم بها الناس، ومن ثم في أفعالهم ونتائجها. لقد ذكر القرآن الكريم المكنزمات التي يوظفها الشيطان للإيقاع بالإنسان، منها "**الأمر**" المباشر، ومنها "**التزيين**" في الأرض، ومنها "**الاستفزاز**" بالصوت، ومنها "**الجلب**" بالخيل والرجِل، ومنها "**المشاركة**" في الأموال والأولاد، ومنها "**الوعد**"، ومنها "**الأز**": ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا٨٣﴾ (مريم)...إلخ. هذه المكنزمات الشيطانية الفعالة، التي لا يراها الإنسان، تعمل داعمة للمكنزمات الاجتماعية المتولدة في النظام الدنيوي، التي بحكم هوية هذا النظام تعمل على عدم استقراره، وتنتهي بهدمه مثل مكنزمات "**التعاون على الإثم والعدوان**"، ومكنزمات "**الفحشاء**" و"**المنكر**" و"البغي". كل هذه المكنزمات الاجتماعية أثبتها القرآن الكريم لهذا النظام الاجتماعي الدنيوي، ويمكن تفصيلها إلى مكنزمات محددة تعمل في مختلف النظم الجزئية (تربوية، اقتصادية، رحمية، سياسية، ثقافية)، وتنتهي بالنظام إلى الإفساد في الأرض، وتقطيع الأرحام.

* المستوى الرابع من المكنزمات الفاعلة في النظام الاجتماعي الدنيوي هي تلك التي تأتي في إطار الروابط بين الله تعالى وبين مكونات النظام، وهي مكنزمات يسخرها الله تعالى في إطار علاقة العداء بينه وبين البشر الذين يكوّنون هذا النظام، والحركة الكونية كلها داخلة في منظومة هذه المكنزمات، بما في ذلك الفعل والتفاعل الاجتماعي الصادر عن الفاعلين في النظام الدنيوي ذاته، فلله جنود السموات والأرض، وكلها تعمل لتتأكد النهايات الحتمية لهذا النظام، ولمكوناته من الناس: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ١٠﴾ (الليل)؛ ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ٤٢ مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَٔۡخِرُونَ٤٣ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ٤٤﴾ (المؤمنون).

* وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم بعض المكنزمات التي هي من صنف مكنزمات البشر الاجتماعية، ولكنه تعالى يستخدم مثلها ليهيمن بها على ذات نوع الفعل البشري ومآلاته، منها مكنزم **"المكر"**: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ٣٠﴾ (الأنفال)؛ ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ٥٠ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ٥١﴾ (النمل)؛ ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ٢١﴾ (يونس). هناك مكنزمات **"الكيد"**: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا١٦﴾ (الطارق)؛ ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ٤٥﴾ (القلم)؛ ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ٧٦﴾ (يوسف). وهناك مكنزمات **"الاستدراج"**: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ١٨٢﴾ (الأعراف).

3.3.3- النظام الاجتماعي التوحيدي

* النظام الاجتماعي التوحيدي المثال يلخصه الرسم البياني رقم (4) في هذا البحث، وهو الحد الآخر، المقابل للنظام الاجتماعي الدنيوي المثال، الذي ينتهي إليه النظام الاجتماعي الفطري العام، ونفترض فيه نزول الوحي، وإرسال الرسل، وإيمان جميع مكونات هذا النظام من الناس بالله وبما أرسل به رسله.

1.3.3.3- مكونات النظام

* المؤمنون الذين يشكلون مكونات هذا النظام نتعرف على صفاتهم من خلال الآيات الآتية (ص 35 في الأصل).

* الآيات السابقة تبين لنا أن الصفات الإلهية الملهمة للتقوى هي وحدها الحاكم على نفوس المؤمنين الذين يكوّنون النظام الاجتماعي التوحيدي، وأن جميع أفعالهم وأعمالهم صالحة، وأنهم يسارعون في الخيرات، وأنهم راشدون، وأنهم شاكرون. المقصد من النظام الاجتماعي التوحيدي أن يمكن المؤمنين من تحقيق معنى العبودية لله تعالى، وجوهرها شكره على نعمه، الظاهرة والباطنة، لا سيما فيما على الأرض من زينة، من خلال المسارعة في الأعمال التي تعمر الأرض بالصلاح، فيزدادون إيمانا مع إيمانهم.

3.3.3.2. - بيئة النظام

* البيئة الخارجية للنظام تتكون من بيئة عالم الشهادة، وبيئة عالم الغيب، ويبين الشكل رقم (6) أن مكونات بيئة عالم الشهادة بالنسبة للنظام هي: الأرض؛ السماوات؛ الوحي، بينما مكوني "المال" و"البنون" يدخلان في تركيبة النظام الاجتماعي موضوع الدراسة من خلال ما عملته يد الإنسان فيهما، ويظهران في شكل نظم اجتماعية جزئية. البيئة الغيبية توجد على مستوى الخلق ويتكون من الشياطين؛ الجن؛ الملائكة، ثم من وراء ذلك الخالق تبارك وتعالى، وهو من وراء خلقه في عالمي الغيب والشهادة محيط. سمة بارزة في عالم الشهادة هي الوحي من الله تعالى إلى الناس في الأرض، ليظل بينهم مُذكِّرا إلى قيام الساعة، وهو يظل باقيا بين أهل الأرض، إما في شكل كتاب منزل محفوظ بحفظ الله له، وهو القرآن الكريم، وإما في شكل علم يُوحَى به إلى الرسل والأنبياء، ويأخذه عنهم العلماء، يتوارثونه، ويبينونه للناس بما استحفظوا من كتاب الله، وكانوا عليه شهداء.

3.3.3.3 - بنية النظام

تتكون بنية النظام من مجموع الروابط الداخلية التي تربط بين مكونات النظام، والروابط الخارجية التي تربط بين مكونات النظام من جهة وبين مكونات بيئته الخارجية، في عالم الغيب والشهادة. إن نزول الوحي بعلم الله تعالى، وإرسال الرسل للبلاغ، وإيمان الناس بكل ذلك يترتب عليه إقامة الدين في الواقع الاجتماعي، وقد افترضناه نظاما اجتماعيا مثالا جميع من يكوّنونه راشدون، ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ٥١﴾ (النور). علم الوحي يحدد المعايير الأخلاقية، والقانونية، وكل القيم التي على أساسها يقام الدين، وبها تنضبط ديناميات التغيير فيه.

* هناك روابط داخلية بين المؤمنين ذات طبيعة عامة أثبتتها الآيات التي بدأنا بها هذا النظام تعريفا بخواص المؤمنين المكونين له، منها: **"الولاية"**؛ **"الأخوة"**، **"التراحم"**؛ **"الأمر بالمعروف"**؛ **"النهي عن المنكر"**؛ **"الشورى"**. وهناك روابط من جنسها ذكرتها السنة النبوية، منها: **"الحب"**؛ **"النصيحة"**، **"التواد"**؛ **"شد الأزر"**...إلخ. وهناك روابط تتأكد أهميتها في إطار نظام اجتماعي جزئي كالنظام المالي مثلا، منها **"إيتاء ذي القربى"**، **"إقامة الوزن بالقسط"**، **"النظرة إلى ميسرة"**، **"التصدق"**، **"الإحسان"**، **"الإطعام"**...إلخ. النظام البيولوجي والرَحِمي تتحدد فيه العلاقات الرابطة بين الرجال والنساء الأجنبيات من خلال توجيهات الوحي التي جوهرها **"أفعل"**، **"لا تفعل"**، مثل **"غض البصر"**، **"حفظ الفرج"**، **"عدم المواعدة سرا"**...إلخ، بينما الروابط الرحمية تقوم على **"المودة"**، **"الرحمة"**، **"الحب"**، **"البر"**، **"المعروف"**، **"الإيثار"**، **"الخلّة"**، **"الشفاعة"**، **"الإخاء"**، **"الصداقة"**...إلخ. النظام السياسي نذكر فيه روابط **"العدل"**، **"الشورى"**، **"النصرة"**، **"الأمر بالمعروف"**، **"النهي عن المنكر"**، **"الطاعة"**، **"النصيحة"**...إلخ.

* الروابط الخارجية التي تربط مكونات النظام وبيئته الخارجية على ثلاثة أضرب، روابط مع مكونات عالم الشهادة متمثلة في: الوحي؛ الأرض؛ السماء؛ وروابط مع مكونات عالم الغيب متمثلة في الملائكة؛ الشياطين؛ الجن؛ ثم أخيرا ما يربط المؤمنين بالخالق، تبارك وتعالى. إن نزول الوحي من السماء، واستقراره في الأرض كتابا يقرأه الناس، ويتفاعلون معه، إيجابا وسلبا، يمثل دينامية تنتهي بالنظام الاجتماعي الفطري إلى واحد من حديه، نظام الاجتماع الدنيوي، أو نظام الاجتماع التوحيدي، أو ينتهي إلى نظام اجتماع حدودي بين الحدين تتداخل فيه سمات النظامين الحديين. يشكل الوحي رؤية المؤمنين للعالم، وحبل الله المتين الذي يحدد روابطهم بالبيئة الخارجية للنظام، فمثلا، في العلاقة مع مكوّنات عالم الشهادة يرتبط المؤمنون في النظام الاجتماعي التوحيدي بالوحي بأوثق الروابط منها رابط **"الهداية"**، رابط **"الشفاء"**، رابط **"التدبر"**، رابط **"السكينة"**، رابط **"التعلّم"**، رابط **"التزكية"**، رابط **"الاعتصام"**...إلخ.

* العلاقة الجوهرية التي تربط المؤمنين بالأرض هي علاقة "**الاستخلاف**" المقتضية لعلاقة "**التسخير**"، المقتضية لعلاقة "**التمكين**". ثم هناك علاقة "**الاعتبار**" بما في الأرض من آيات الله الدالة عليه، ثم هناك علاقة "**الحياة**"، وهناك علاقة "**الموت**" لقول الله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا٢٥ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا٢٦﴾ (المرسلات). المؤمنون علاقتهم الجوهرية بالسماء نوعان؛ علاقة "**تسخير**"، وعلاقة "**اعتبار**": ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ١٣﴾ (الجاثية)؛ ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ١٠١﴾ (يونس).

* أهم الروابط مع البيئة الغيبية هي تلك التي تربط مكونات النظام التوحيدي من المؤمنين بالشيطان، أحد مكونات هذه البيئة، وهو رباط جوهره **"العداء"**، فقد أخبر الوحي المؤمنين بأن الشيطان لهم عدو، وأمرهم أن يتخذوه عدوا. وعداوة الشيطان هي لكل الناس، مؤمنهم وكافرهم، ولكن الكافر كفاه بكفره المهمة، وفرّغ جهده لإضلال المؤمنين. وقد بينا في تحليلنا لهذه العلاقة في إطار نظام الاجتماع الدنيوي كل أنواع الروابط التي تربط الشيطان بمطلق إنسان فنكتفي في هذا بذاك، غير أن الوحي يفيد بأن هناك علاقات للشيطان خاصة بالمؤمنين مثل علاقة **"التحزين"**: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـٔٗا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٠﴾ (المجادلة). كذلك يزود الوحي المؤمنين بمكنزمات لمدافعة الشيطان نذكرها في موقعها أدناه، وهي مكنزمات فعّالة بدليل أن الشيطان لم يجد له سلطانا على من يكوّنون هذا النظام التوحيدي. بالنسبة للجن عموما فقد رأيت أن أتجاهل علاقتهم بالمؤمنين لأنها لا تبدو في رؤية القرآن للعالم جوهرية في إطار النظام الاجتماعي التوحيدي.

* الرابط الجوهري بين المؤمنين والملائكة، المكوّن الثاني للبيئة الغيبية، هو رابط "**الولاية**": ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ٣١﴾ (فصلت)، وهناك رابط "**التثبيت**": ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ١٢﴾ (الأنفال). وهناك رابطان عامان يربطان كل الناس بالملائكة غير أن المؤمنين على وعي بهما، بينما الكافرون عنهما غافلون، وهما رابط "**الكتابة**": ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ٨٠﴾ (الزخرف)، ورابط "**الرقابة**": ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ١٨﴾ (ق).